اقرأ

دكتور عبد العزيز الدسوقي

شوقي ضيف

رائد النقد والدراسة الأدبية

دار المعارف

٦٧٧
الرقم العام :
١/١

اقرأ

[٥٤٢]

شوقي ضيف

رائد النقد والدراسة الأدبية

دكتور عبد العزيز الدسوقي

شوقي ضيف

رائد النقد والدراسة الأدبية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

هذا الكتـــاب...

* هذه مجموعة من الفصول نشرتها على شكل مقالات
جلة الثقافة فى الفترة من أكتوبر ١٩٧٩ إلى أكتوبر
١٩.

وكلها تدور حول رائد من أهم رواد النقد والدراسة
بية فى الحياة العربية المعاصرة، هو الأستاذ الدكتور
ى ضيف.

وقد حرصت على أن أبرز فيها، إنجازه الفكرى، وإبداعه
ى، من خلال نظرة شاملة متذوقة لمؤلفاته المتعددة، فى
النقد والدراسات الأدبية والإسلامية، ورؤية جمالية
ية للدور الثقافى الذى قام به على امتداد نصف قرن من
ن: أستاذًا جامعيًا، وناقدًا أدبيًا، ودارسًا منهجيًا، ومفكرًا
ب العقل، مرهف الذوق، عميق التناول.

وقد استقبل القراء وتلاميذ الدكتور شوقى ضيف، هذه

الفصول عندما كانت تنشر فى مجلة الثقافة - نضر
أيامها - بالرضا والاهتمام، وألح علىَّ بعضُ هؤلاء الأ
فى إصدار هذه الفصول فى كتاب يسهل الرجوع إليه،
أن تظل مبعثرة بين أعداد الثقافة.

واستجبت بكل الحب والإعزاز لهذه الرغبة الـ
وأتمنى أن يصادف الكتاب من الاهتمام والقبول والاح
ما صادفته الفصول عندما كانت تنشر فى المجلة.

وعلى الله قصد السبيل..

القاهرة ١٩٨٧

دكتور عبد العزيز الدس

مقدمة

قى ضيف رائد فى الدراسة الأدبية*

تقد أن هذه أكبر مناسبة فى تاريخ الأستاذ الدكتور
ضيف، فقد حصل هذا العام الباحث المفكر الإنسان،
جائزة الدولة التقديرية فى الآداب فى الشهر الماضى.
ن شئت الدقة فقل هو أكبر حدث فى حياته كلها...
ل وقف حياته منذ صباه المبكر حتى الآن على التعلّم
م، والبحث والدرس، فى تجرد الزّهاد، وصبر
دين الصادقين، بعيدًا عن التظاهر والاستعراض،
ب الحياة الاجتماعية ومواضعاتها، وتقاليدها الجوفاء.
ند هزتنى كلمات جاءت فى التقرير الذى كتب عنه
ا مبررات ترشيحه للجائزة.. وتقول هذه الكلمات:

لعدد ٧٣ أكتوبر ١٩٧٩ من مجلة الثقافة.

«إنه يعد نمطًا فريدًا فى جيله، وإمامًا فى تخصصه، له
المتميزة على استيعاب الأصول والمصادر البعيدة ل
العربى...

وبمثابرته على تأصيل مناهج الدراسة الأدبية وا
واللغوية على أسس موضوعية قومية، نفذ إلى الكث
الحقائق العلمية، والإضافات المبتكرة الخصبة، وصوَّب
من القضايا الخاطئة والمغلوطة، وكشف عن وجه
العربية ضبابًا التفَّ به منذ حركة الإحياء».

هزتنى هذه الكلمات، لأنها تصور بالفعل الجهود الم
المثمرة المباركة للدكتور شوقى ضيف، ولأنها تض
الدارس المتخصص فى إيجاز دقيق عميق المجالات
التى ارتادها الدكتور شوقى ضيف، وكان لها بحق
وإمامًا.

* فالرجل رائد فى النقد والدراسة الأدبية، والد
اللغوية.

* وهو رائد فى تأصيل مناهج جديدة للبحث ا

* وهو رائد فى الدراسات القرآنية والإسلامي

وريادته لتلك المجالات كلفته الكثير، فقد وهب

للبحث العلمى... وتكبد من العناء والمشقة ما تكبد، على الخوض فى هذه التيارات المتلاطمة من المعارف انية، وتحمل عبء التحصيل والمثابرة على الاستزادة العلوم والفنون. وبطبيعة علمية مواتية، وحافظة كان يحيط بالكثير من المعارف، ويقف على معظم ات الأدبية والفكرية التى تتصل بدراسته. وبذكاء لماح، واسع، وخصوبة فى الاستيعاب، وقدرة على النفوذ إلى الأشياء، كان يهضم ما يقرأ، ويتمثل ما يقف عليه من واتجاهات. وبأسلوب علمى دقيق رشيق، يجمع بين والعذوبة والوضوح، كتب مؤلفاته وتحقيقاته التى من الخمسين.

تب الدكتور شوقى ضيف يعرفها تلاميذه ومريدوه، ين تلقوا عليه العلم فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، أربعة عقود: (الأربعينات، والخمسينات، والستينات، ينات). وهم أفواج بعد أفواج ينتشرون الآن على الأرض العربية. ويحتلون أكبر المناصب العلمية مية، إلى جانب تلاميذه الذين أشرف على رسائلهم : فى الجامعات الأخرى، أو من الذين تتلمذوا على من خارج الجامعات...

وكتب الدكتور شوقى ضيف تحولت إلى مصادر
ومراجع متميزة للدارسين والباحثين، سددت خ
ورفدت بحوثهم بأدق النظرات وأعمق الأفكار، و
مجال أخْذٍ وردٍّ بين الباحثين والدارسين، وهذا هو
الباقى، والخلود الدائم بالنسبة للعالم الباحث الد

وإننى بهذه المناسبة أطرح سؤالاً على الإخوة
يثرثرون منذ عامين فى الصحف والمجلات وأجهزة التو
والثقافة، ناعين جدب الساحة الثقافية، متباكين
ما زعموه، من ذبول النقد والدراسة الأدبية، هل قرأ
الإخوة شيئًا من كتب الدكتور شوقى ضيف فى
المجالات الأدبية والفكرية وتحقيق التراث، والتى
صدورها منذ مطلع الأربعينات حتى العام الماضى
قدموا تعريفًا بكتاب من هذه الكتب فى زواياهم
وصفحاتهم ومجلاتهم التى يشرفون عليها؟!

وما أُبرئ نفسى من هذا التقصير، فعلى معرفتى
بمؤلفات الدكتور شوقى ضيف وقراءتى معظم هذه المؤ
فإننى - أنا الآخر - لم أكتب عنه، إلا مرتين اثنتين
انتخِبَ عضوًا فى مجمع اللغة العربية. مرة فى

بوعية العدد (١١٦) الصادر فى ١٥ يناير ١٩٧٦. ومرة
فى الثقافة الشهرية العدد ٢٩ الصادر فى فبراير
١. وأعترف أنها خطرات عابرة لا ترقى إلى التعريف
العميق برائد عظيم فى الدراسة الأدبية، مثل الدكتور
ى ضيف.

أرجو أن تتاح لى الظروف على امتداد هذا العام الجديد
عمر الثقافة لدراسة أعمال الدكتور شوقى ضيف دراسة
لمية، وإبراز جهوده العلمية ومناقشة النتائج التى توصل
. وهى نتائج كثيرة ورائعة.

رجو أن يكون هذا الموضوع الذى أكتبه بمناسبة فوزه
زة بمثابة مدخل لهذه الدراسات التفصيلية التى أزمع
بها إن شاء الله.

ذا كان لابد من بداية صحيحة لدراسة أعمال الدكتور
، ضيف، فلابد من الوقوف - أولا - عند كتابين من
تبه وهما: «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» و «الفن
به فى النثر العربى».

د صدرت الطبعة الأولى للكتاب الأول فى عام ١٩٤٣،
ت الطبعة الأولى للكتاب الثانى سنة ١٩٤٦.

وأنا أعاود قراءة الكتاب الأول فى طبعته العا
والكتاب الثانى فى طبعته الثامنة. وهما طبعتان جدي
صدرتا فى العام الماضى.

معنى ذلك أن كتب الدكتور شوقى ضيف لاتزال
وشديدة الحضور فى الساحة الثقافية، ولاتزال - كما
منذ اكثر من ثلث قرن - تُؤثِّرُ فى العقول والق
والأذواق، وتستأثر باهتمام الناس من مختلف ال
والأفكار والاتجاهات. ترى ما سر جاذبية تلك ا
والدراسات الجادة العميقة، التى تدعو إلى الإقبال
وطلبها، وإعادة طبعها كل تلك المرات؟

وللإجابة على هذا السؤال البسيط، يجب أن أمضي
أنا بسبيله الآن من الدراسة المفصلة لمؤلفات الدكتور
ضيف.

وأعود إلى توضيح سر اهتمامى بكتابيه «الفن و
فى الشعر العربى» و «الفن ومذاهبه فى النثر الع
فالكتاب الأول الذى صدر فى مطلع العقد الرابع
أول كتاب يصدر للمؤلف. وكانت الساحة الثقافية
بكتابات الجيل الأول من الرواد. طه حسين، و

مصطفى عبد الرازق، وأمين الخولى، وأحمد أمين، بد الوهاب عزام، والعبادى والعقاد والمازنى وشكرى لامة موسى والرافعى وزيدان ومهدى علام وأحمد ضيف، برهم وغيرهم من رواد الجيل الأول، الذين اهتموا فى رجة الأولى ببعث التراث العربى فى أزهى عصوره. رْثِ الأرض، وبَذْرِ بذور التجديد فى التُرْبة العربية.

وانصرفت معظم جهود المحافظين من هذا الجيل الأول إحياء التراث،ومحاولة جعله شيئًا مألوفًا فى حياتنا يثة.

أما المجددون من أبناء هذا الجيل الأول، فقد استأثرت ودهم تيارات الفكر الأوربى، والاتجاهات الأدبية، ائق البحث ومناهجه التى كانت متقدمة فى العالم بى.. فحاولوا نقل هذه المذاهب والاتجاهات إلى العربية، يقها على أدبنا القديم والحديث، ولهذا جاءت معظم ماتهم تطبيقًا للنظريات الأوربية، وإشاعة لتلك ريات وهذه المذاهب كما هى وبأسمائها...

لست أغض من شأن هذا العمل الحضارى، فلاشك أن

هؤلاء الرواد الأوائل، هم أصحاب الفضل فى تفجير حـ
البعث الأدبى، وإشعال حركة التجديد، التى بدأت
منتصف القرن الماضى حتى أواخر السنوات العشر
القرن العشرين، وهاتان الحركتان تلاطمتا وتحولتا -
العقود الثلاثة من هذا القرن - إلى تيارات ثم اتجاهات
النقد والدراسة الأدبية. ولكن هذا الجيل الأول من الرو
يستطع أن ينشئ مدارس فى النقد والدراسة الأدبية، مدل
بالمعنى الحقيقى للمدارس الأدبية. وقصارى جهوده، تو
عند تلك الاتجاهات التى تبلورت طوال العقد الثالث
القرن العشرين، أى على مشارف الحرب العالمية الثانية.

ومن هنا انفسح المجال أمام الجيل الثانى ليقوم
العمل. ولكن قلة قليلة من هذا الجيل هى التى أدركت
الأمر، واتضحت أمامها تلك الخارطة لحياتنا الأدبية. أما
هذا الجيل فقد وقع معظمه فى براثن الجيل الأول،
يحاكيه ويكرر ما فعل، وراح بعضه يحاكى الأقدمين مع
من التجديد. أما القلة القليلة التى تحملت مسئو
وأدركت دورها، فقد بدأت ترسى دعائم مدارس
والدراسة الأدبية فى ساحتنا الثقافية، وكان الدكتور شـ

ف من أوائل هذه المجموعة الرائدة، إن لم يكن إمامها ئدها.

كان الطريق صعبًا وشاقًّا أمام هذه المجموعة الرائدة من ل الثانى، على الرغم من أنها استفادت بإنجازات جيل واد الأول فى النقد والدراسات الأدبية. حيث وجدت ها كتبا فى النقد والدراسة الأدبية تطبق أحدث المناهج مية وتطبق فى دراسة الشعر مناهج التحليل النفسى جتماعى، وتتذوق الشعر على أسس من الفهم الواعى سير، وكان عليها إذا أرادت أن تتميز عن هذا الجيل ل – وأن تنمو إلى جوار هذه الأشجار السامقة العاتية قتلت بجانبها كل الأشجار الصغيرة والأعشاب – أن م تصورًا جديدًا فى النقد والدراسة الأدبية، تصورًا جًا متماسكًا، له أسسه الموضوعية، وقواعده العلمية، ه الجمالية وطرائقه التعبيرية. تصورًا محددًا يختلف عما من نظرات، ولا يندرج فيما بعده من اجتهادات. ومن نشأت الصعوبة أمام هذه القلة من الجيل الثانى الذى بعد جيل الرواد.

ولكن الدكتور شوقى ضيف تقدم فى شجاعة ورسوخ –

فى مطلع العقد الرابع من هذا القرن - يقود هذه المدر
الجديدة ويرسى دعائمها، ويضع أسس هذا التصور الج
للنقد والدراسة الأدبية.

وكان كتابه الرائد «الفن ومذاهبه فى الشعر العر
يحمل ملامح هذه المدرسة الجديدة. التى يمكن أن نط
عليها «مدرسة التأصيل النظرى». ولقد رفضت
المدرسة أن تندمج فى هذا التراث القديم، أو أن تتلا
وتذوب فى التيارات الأوربية المعاصرة، وكان عليها أن ت
لها رموزها وقيمها وتسمياتها وتحددها بدقة وتطبقها
تراثنا الفنى، بعد أن تنتزعها من نصوصه، بحيث تك
متفقة مع روحه وجوهره وطبيعته الجمالية، وتجىء أيضًا م
مع سياق العصر واتجاهه فى التفكير والتعبير.

وكان الدكتور شوقى ضيف إمام هذه المدرسة،
بحكم تكوينه الفكرى والروحى، وثقافته الخصبة ودرا
المتنوعة، فى معاهد الأزهر، وتجهيزية دار العلوم، و
الآداب، للقيام بهذا الدور.

فلأول مرة يدرس الشعر والأدب على أنه مذاهب
محددة، ولأول مرة يضع لهذه المذاهب أسماء محددة مس

تاريخنا الأدبى وتراثنا، ومتمشية مع طبيعة الأدب العربى
وف نشأته ، ولأول مرة يطبق هذا التصور على الأدب
بى شعره ونثره، ويختبر تلك المقاييس والتسميات على
ج من الأدب العربى.

وكان الدكتور شوقى ضيف على وعى تام بما يفعل، وعلى
دقيق بأنه يقيم أسس مدرسة للتأصيل النظرى، تضع
ر والنثر مذاهب فنية تفسره وتحدد ملامحه الفنية وقيمه
لية.

وفى مقدمة الطبعة الأولى من كتابه الأول «الفن ومذاهبه
لشعر العربى» يوضح لنا ملامح هذا التصور الجديد
ه: «حاولت فى هذا الكتاب أن أضع للشعر العربى،
ب فنية تفسر تطوره فى عصوره وأقاليمه المختلفة، وقد
فتنى مشكلتان أساسيتان، وهما: كيف أرتب هذا الركام
ن من الشعر والشعراء الذى يمتد من العصر الجاهلى إلى
ر الحديث؟ ثم أى المصطلحات أتخذها للدلالة على
ب الشعراء ومناهجهم الفنية. ورأيت أن أنحاز عن هذا
ط المضطرب من الألفاظ الغربية التى نقلها بعض
ا المحدثين من مثل (كلاسيك) و (رمانتيك) ونحوهما،

فإن من الصعب أن نحمل أدبنا على مذاهب الأدب الغ
وهو لا يمت إليه بوشائج تاريخية ولا فنية»[1].

هو إذن يريد أن يجدد الدراسة الأدبية، ويضع لل
العربى مذاهب فنية تفسره. ولكنه فى الوقت نفسه ير
أن يتلاشى فى المذاهب الغربية الجديدة... وهذا هو
«الأصالة والمعاصرة»، ولكنه يمتلك أيضًا حرية ا
والذوق والضمير فراح يفتش فى تراثنا العربى عن د
تعينه على تحديد المذاهب التى يرغب فى التوصل إ
يرفض ما يشاء بحرية، ويقبل ما يشاء بحرية.

وهو يحدثنا عن هذه الرحلة من المعاناة بقوله «ونظ
فى النقد العربى فإذا النقاد يقسمون الشعراء قس
كبيرين: قسمًا سموه أصحاب الطبع. وقسمًا سموه أص
الصنعة، أما الأولون فهم الذين يسيرون وفق عمود ا
الموروث، فلا ينمقون، ولا يتأنقون، ولا يتكل
ولا يغربون. وأما الأخيرون فهم الذين كانوا ينحر
عن هذا العمود إلى التنميق والتأنق، أو إلى الإغ

(١) الدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى: ٧ (
العاشرة دار المعارف ١٩٧٨).

كلف، ورأيت أن هذا التقسيم لا يقوم على أساس
يح»[1].

هو يرفض تفسير الأقدمين هذا، ويرى أن تقسيم الطبع
صنعة لا يحل الإشكال، ولا يصمد للمناقشة العلمية.
، شعر لاشك مستند إلى طبع موات وموهبة محققة، مهما
، صاحبه وأجهد نفسه فى صناعته ونظمه. وكل شعر لابد
ن أسس علمية وقواعد، وتقاليد فنية ورسوم جمالية
رثها الشعراء جيلاً بعد جيل، مهما زعم شعراء الطبع من
يستندون إلى فطرهم الملهمة، ومواهبهم الخصبة. الشعر
ج إلى الموهبة والفطرة، حاجته إلى الصقل والدراسة
صنعة والتقاليد، وهداه هذا الرفض إلى بداية الخيط
ل لاسم المذهب الجديد والتسمية التى يطلقها عليه.
لقد اتخذ كلمة (الصنعة) اسمًا للمذهب الفنى الأول الذى
فى الشعر العربى، واتخذ (زهيرًا) رمزًا لهذا المذهب،
ف فنه فى شعره، ووضح ما يرتبط به فى صناعته من
عد وتقاليد.

يحدثنا أنه ربط بهذه الصورة من الفن والصناعة،

---

[1] المصدر السابق والصفحة.

«الشعر الغنائى الخالص الذى كان يصحب بالع
والضرب على الأدوات الموسيقية، من العصر الجاهلى
العصر العباسى، فإن أصحابه لا يخرجون به عادة -
زخرف وتنسيق»[1].

ومسح العصر العباسى كله، حيث انتقلت صناعة الـ
العربى من البادية إلى المدينة، وامتزجت بهذه التق
عناصر جديدة من الحضارة والجنس والثقافة. فظهـر مذ
ثان إلى جانب القديم سماه «مذهب التصنيع». وهذا المذ
يعتمد على الحَلْى والترصيع والبديع... يعتمد على الزخ
والتنميق. وهذا هو معنى «التصنيع» وازدهر هذا المذهب
القرنين الثانى والثالث. وفى القرن الرابع ظهر مذهب ج
ثالث أطلق عليه الدكتور شوقى ضيف «مذهب التصن
لأن شعراء هذا المذهب الجديد تطرفوا فى الصنعة
وصلوا بها إلى لون من التعمل والتعقيد. فالشعر العربى
مر بمذاهب ثلاثة فى رأى الدكتور شوقى ضيف:

المذهب الأول: «مذهب الصنعة» وضم شعراء الـ
الجاهلى والعصر الإسلامى حتى العصر العباسى. ومث

(١) المصدر السابق ص ٨ - ٩

ه زهير، ثم امتد إلى العصر العباسى، وظل قائمًا، ومثله
ي وأبو نواس، ثم البحترى، وابن الرومى.

لمذهب الثانى: «مذهب التَّصْنيع» ومثله فى القرنين
انى والثالث الهجريين مسلم بن الوليد، ثم أبو تمام،
ى المعتز.

لمذهب الثالث: «مذهب التصنع» وقد ظهر فى القرن
بع. ويحدثنا الدكتور شوقى ضيف عن هذا المذهب
ث بأنه كان «يقوم على إعادة الصور المطروقة والمعانى
وثة، بأساليب من اللف والدوران وإتيان المعنى من
، ثم يحاول الشاعر بعد ذلك أن يضيف تعقيدًا إلى
ليب الزخرف والتنسيق السابقة، أو يضيف تعابير
كيب شاذة من نحو غريب، أو تشيع، أو تصوف،
فلسف، وما لبث أبو العلاء أن أوفى بهذا المذهب إلى
ه من التعقيد الشديد فى لغته وأوزانه، وما كان يتصنع له
لوازم مختلفة»[1].

هذه هى المذاهب الثلاثة التى اهتدى إليها الدكتور
ى ضيف بعد عناء شديد، ودراسة جادة متذوقة فى

---

1) المصدر السابق ص ٩

شعرنا العربى كله. وأنا أقف أمام هذه التسميات فى اح
شديد ورهبة أشد، لأننى أدرك تمامًا مدى الجهد الذى
الدكتور شوقى فى التأصيل والتنظير حتى استقامت له
التسميات، ومدى العناء والإرهاق الذى بذله فى تطبيق
التسميات على الشعر العربى، والنثر أيضا.

لم تعد إذن هذه الكلمات الثلاث مجرد ألفاظ
دلالاتها القديمة، يمكن أن نتناولها فى استهتار ونزق قائلي
مثلا – إن الفروق بينها غير واضحة. فلقد تحولت
مصطلحات محددة تدل على مذاهب فنية لها أس
الموضوعية وحدودها الواضحة.

بهذا الجهد العلمى المضنى فى التأصيل والتنظير،
الدكتور شوقى ضيف، هذه المدرسة الجديدة فى
والدراسة الأدبية فى مطلع العقد الرابع من هذا الق

ومن خلال هذه المدرسة الجديدة ومصطلحاتها التى
بها الشعر العربى، فسر أيضا النثر العربى فى كتابه «ا
ومذاهبه فى النثر العربى» الذى صدر عام ١٩٤٦ وأصبح
نسق فكرى محدد صارم، يقيس عليه ويدرس من خ
ويبدى رأيًا فى كل ما يقرأ وما يتصور، ويتفق مع هذ

لف بناء على الالتزام بهذا النسق الفكرى الجديد، صور الذى طرحه من خلال هذين الكتابين. وهذا هو ى الدقيق للمدرسة الأدبية. وأعتقد أن طرح هذا صور الجديد منذ هذا الوقت المبكر هو الذى يجعلنا نعقد ء الريادة الآن للدكتور شوقى ضيف، فهو رائد من هذه حية.

قد نختلف معه بعد ذلك فى بعض التفصيلات، أو حتى فى تطبيقات هذا التصور على جوانب من أدبنا وتراثنا. ننا سنظل نقر له بالريادة ونقف مبهورين خاشعين أمام الأساس النظرى الذى كبده كل هذا العناء، وكتب فى ل تأصيله كل تلك الصفحات وكل تلك المؤلفات. لأنه بهذا التصور طريقًا جديدًا.

وهذا التصور الجديد ظل يلازم الدكتور شوقى ضيف، يكتب حتى فى الأدب المعاصر. ولعل هذاالتصور الجديد الذى منحه هذا التفوق والتفرد والتميز. حتى وهو يكتب المدارس النحوية، أو وهو يقتحم ميدان الدراسات آنية.

عندما حاول الدكتور شوقى ضيف أن يتخفف من أسر المدرسة التى رادها، وهو يكتب موسوعته الرائعة

(تاريخ الأدب العربى) فى أجزائه الأربعة، لم يستطع - ر
تسللت إلى تلك الموسوعة نظرات كثيرة من هذه المذاه
الفنية التى أصَّلها على امتداد تاريخه الأدبى كله.

منهج الدكتور شوقى ضيف فى تأريخه للأدب العربى ل
نظرى واسترعى انتباهى، وتصورت قبل أن أقرأ الكت
أن الرجل عاد إلى تلك الفكرة القديمة فكرة - إخضاع
تاريخ الأدب العربى للتاريخ السياسى. وظاهر الأمر ير
هذا التصور، فقد أصدر كتابه فى أربعة مجلدات كبـ

المجلد الأول: خصصه للعصر الجاهلى.

المجلد الثانى: الذى أطلق عليه (العصر الإسلا
خصصه للعصر الإسلامى، وعصر بنى أمية.

المجلد الثالث: خصصه للعصر العباسى الأولى

المجلد الرابع: خصصه للعصر العباسى الثانى[1]

---

(١) صدر بعد ذلك من هذه الموسوعة:

* عصر الدول والإمارات - المجلد الخامس - (الجزيرة العربية والع
وإيران).
* عصر الدول والإمارات - المجلد السادس - (مصر والشام).
* عصر الدول والإمارات - المجلد السابع - (الأندلس) - تحت الط

وهذا التقسيم التقليدى القديم الذى شاع منذ أواخر
ن الماضى وأوائل هذا القرن، والذى ثار عليه
ارسون، لأنه لا يمثل النظرة الحقيقية للدراسة الأدبية.
نه يرسخ النظرة الإقليمية فى مجال الدرس الأدبى.

ولا أدرى ما الذى جعل الدكتور شوقى ضيف يسلك
ا المسلك، مع أن مدرسة التأصيل (النظرى) التى رادها
ان لها قائدًا وإمامًا منذ مطالع الأربعينات صححت منهج
رس الأدبى، وأبعدته عن التبعية السياسية والاجتماعية،
حت فكرة المؤثرات الاجتماعية والروحية، وأثبتت
دة الأدب العربى ونفت عنه فكرة الإقليمية التى قال بها
ض الدارسين؟!

وسألت الدكتور شوقى ضيف عن هذا الأمر فقال لى:
اصطنعت هذا التقسيم الشكلى لأؤرخ للأدب العربى كما
فى أذهان الناس وتصوراتهم. ولكن أرجو أن تقرأ
تاب كله لأعرف رأيك. هل هو ردة إلى منهج إخضاع
ريخ الأدبى للتأريخ السياسى؟ أو هو امتداد لنظرتى فى
رس الأدبى؟!

وأغرتنى هذه الإجابة بأن أغامر بدراسة هذه الموسو
الكبيرة، التى تزيد على ألفى صفحة من القطع الك
ابتداء من العدد القادم، لأناقش منهج الدكتور شوقى ض
فى التأريخ للأدب العربى.

موقى ضيف وتاريخ الأدب العربى*

(١)

ستقر رأيى على أن أستمر فى دراسة كتب الأستاذ
تور شوقى ضيف، والنتائج العلمية التى توصل إليها فى
ت النقد والدراسة الأدبية، والدراسات اللغوية،
راسات الإسلامية، وتحقيق التراث.
أتمنى أن أقدم للقارئ - على امتداد الأرض العربية -
ة دقيقة لجهود هذا العالم الجليل التى استمرت نحو
ن عامًا، ولايزال - أطال الله عمره - يواصل العمل
مال العلمى.
سأعتبر المقالة السابقة بمثابة التمهيد والمدخل لهذه
سة التى أنوى القيام بها - ابتداء من هذا العدد -
ء الله.

---

* المقالة الثانية (العدد ٧٤ نوفمبر سنة ١٩٧٩) مجلة الثقافة.

وفى البداية سأناقش موقف الدكتور شوقى ضيف
التأريخ للأدب العربى. وما الدافع الذى جعله يفرد
التأريخ أربعة مجلدات كبيرة تزيد صفحاتها على الأ

سار فيها على النمط الشائع بين مؤرخى الأدب ا
منذ أواخر القرن التاسع عشر، وحتى الآن، من ربط ا
بالتاريخ، وتقسيمه حسب عصوره.

ولا نجد غضاضة فى توجيه هذا السؤال إلى هذا
الجليل، فهذا النهج من التأليف يخالف نظريته فى
والدراسة الأدبية التى بدأ بها حياته العلمية. والتى تتج
دراسة الأدب على أنه مذاهب فنية لها خصائصها ا
وقيمها التعبيرية، وطرائقها الفكرية، كما فعل فى
«الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» و «الفن ومذاهبه فى
العربى» وغيرهما من كتب. والتى كانت تتجه إلى
لترصد ظواهر التطور والتجديد التى مر بها كما فى
«التطور والتجديد فى الشعر الأموى». أو تحدد لونا
تميز به، وتقف عند سمات هذا اللون، وخصائصه
والفكرية، كما فى كتابه «الشعر وطوابعه الشعبية ع
العصور». أو تعلل ظاهرة حضارية أو فنية أثرت فى

زته بطعم خاص، كما فى كتابه «الشعر والغناء فى المدينة
ة لعصر بنى أمية».

إذن ما الذى دفع الدكتور شوقى ضيف دفعًا إلى تأليف
التاريخ الموسع المفصل للأدب العربى، والذى بدأه منذ
١٩٦٠ عندما صدر المجلد الأول من كتابه «تاريخ
ب العربى» عن «العصر الجاهلى»، ثم المجلد الثانى فى
مس عشر من يولية سنة ١٩٦٣، عن «العصر
سلامى» ويضم هذا المجلد كتابين، يتحدث أولهما عن
ر الإسلام، ويتناول ثانيهما عصر بنى أمية.

أما المجلد الثالث فيدرس «العصر العباسى الأول» وقد
ر فى عام ١٩٦٦.

والمجلد الرابع صدر فى أول مايو سنة ١٩٧٣ عن
صر العباسى الثانى».

هل نجد تبريرًا معقولا يفسر لنا هذا الاتجاه الذى منحه
حث الفاضل نحو خمسة عشر عامًا من حياته العلمية
ورة؟

وهل يعنى هذا أن الدكتور شوقى ضيف غير نظرته إلى
اسة الأدبية واقتنع بهذا المنهج المألوف الذى ساد

الدراسة الأدبية فترات طويلة من حياتنا، ووجِّهتْ
آلاف السهام على امتداد هذا التاريخ. حتى كاد يختفي
الساحة الثقافية؟

ويمكن أن نلتمس إجابات كثيرة عن هذه التساؤ
ولكن يبدو أن طبيعة حياة الدكتور شوقي ضيف الـ
وتفرغه للتدريس في الجامعة منذ بدأ حياته حتى الآن،
التي أوحت إليه أن يؤلف كتابًا يدرس بالتفصيل الـ
العربي، ويؤرخ له في كل عصوره. ووجد أن هذه الطري
التقسيم والترتيب، هي صورة التأريخ للأدب العربي
أذهان الناس، فلجأ إليها، واتخذها إطارًا لدراسته، م
تمكن في داخل هذا الإطار أن يقدم نظرياته في
والدراسة الأدبية. التي آمن بها وراد من خلالها حقل
والدراسة الأدبية، وألف فيها عشرات الكتب، بل لعل
الجهود السابقة، هي التي أعانته على ذلك، فقد تحولت
الأفكار والنظريات التي بثها في هذه الكتب إلى عص
ثقافية سرت كالدماء في شرايين هذا التاريخ الموسع لـ
العربي دون عناء أو مشقة.

ولكن كيف يعلل الدكتور شوقي هذا الاتجا
الدراسة؟

يحدثنا فى مقدمة مجلده الأول عن «العصر الجاهلى» عن
بقوله: «للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتب
نة فى تاريخ الأدب العربى، أدت كثيرًا من الفائدة
ع منذ ظهورها، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه
ب ما يبسط الحديث فى أدبنا وأدبائنا على مرِ التاريخ
الجاهلية إلى العصر الحديث بسطًا مفصلًا دقيقًا، وأغزر
الكتب وأحفلها مادة، كتاب «تاريخ الأدب العربى»
كلمان، وهو دائرة معارف جامعة لا تقتصر على الحديث
شعرائنا وكتابنا، بل تفيض فى الكلام عن فلاسفتنا
ئنا من كل صنف، وعلى كل لون، مع استقصاء آثارهم
ِعة والمخطوطة فى مشارقِ الأرض ومغاربها، والإشارة
ا كُتب عنهم قديمًا وحديثًا. وهذه العناية من وصف
ث العربى جميعه، جعلت «بروكلمان» لا يعنى عناية
ة ببحث العصور والظواهر الأدبية، ولا يبحث
يات الأدباء بحثًا تاريخيًّا نقديًّا تحليليًّا، إذ شغلته عن
مواد كتابه المتنوعة الكثيرة».[1]

د. شوقى ضيف: تاريخ الأدب العربى: العصر الجاهلى ص ٥ (الطبعة
دار المعارف.

إذن هو لا يرضى عن خلو كتاب «بروكلمان» من د
الظواهر الأدبية. وخلوه أيضًا من استيعاب دراسة الع
والتريث عندها، وتناولها بالنقد التحليلي، ورأى أ
حاجة إلى دراسة جديدة يصفها بقوله «وإذن فأنا لا
إذا قلت: إن تاريخ أدبنا العربي يفتقر إلى طائف
الأجزاء المبسوطة تبحث فيها عصوره من الجاهلي
عصرنا الحاضر، كما تبحث شخصياته الأدبية بحثًا
بحيث ينكشف كل عصر انكشافًا تامًّا بجميع
وبيئاته وآثاره، وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية
ثقافية، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافًا
بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفن

ويحدثنا أنه نهض بهذا العبء وحده على الرغم م
العقبات ووعورة المسلك، فلايزال الكثير من الآثار
مخطوطًا لم ينشر، ولاتزال بعض البيئات يغمرها
«يضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس
سهلًا، لكثرة ما يداخلها من عناصر الحياة والفن المت
ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة، وهي لا

(١) المصدر السابق والصفحة.

وعًا مطلقًا لقواعد العلم وقوانينه، حقًّا تخضع للطريقة
ية، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق،
البصيرة، والإحساس المرهف»[1].

لدكتور شوقى ضيف إذن كان يعلم تمامًا أنه يقدم
اته فى النقد والدراسة الأدبية من خلال هذا الإطار
بخى، أو إن شئت الدقة فقل: إنه حاول أن يخرج
ة الظاهرة الفنية والنفسية من خلال منهج تاريخى، مع
، دقيق للظواهر الحضارية، وفحص علمى للتطور
ى للأدب، وتذوق فنى لخصائصه وقيمه وطرائق التعبير
صوير التى يتميز بها. مع دراسة تلك التقاليد الفنية
نرية والجمالية دراسة تاريخية فى إطار العصور المختلفة
مرت بالأدب العربى.

لحق أنها معادلة صعبة عسيرة. ولكن النجاح فيها يعيد
سة التاريخية مجدها، بعد أن تحولت إلى مجرد اتجاه
ى عقيم؟ ويربط بين المنهج التاريخى والمنهج الجمالى
، فى الدراسة الأدبية، أو يمزج بينهما مزجًا.
هل توصل الدكتور شوقى ضيف إلى ذلك؟!

---

[1] المصدر السابق.

تعال نفحص بدقة مسلكه فى دراسة العصر الجاهلى.
المجلد الأول من هذا التاريخ.

بدأ دراسته بتمهيد تناول فيه تعريف كلمة (الأ
وكيف تطورت بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من
البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة. وكيف كان من مع
الدعوة إلى الطعام، حتى أخذت معناها الذى يتبادر
أذهاننا اليوم، وهو التعبير «البليغ الذى يقصد به إلى ا
فى عواطف القراء والسامعين، سواء أكان شعرًا أم نثرً

ثم تناول فى هذا التمهيد تاريخ الأدب، ووقف
نظرتين لهذا التاريخ نظرة تلتزم بالتأريخ «للحياة ال
والشعورية فى الأمة تأريخاً عامًّا»[٢] ونظرة ثانية تلتزم
الخاص للتاريخ الأدبى فتؤرخ للشعراء والكتاب
جامعًا بالأدب ونشأته وتطوره وأهم أعلامه»[٣] وتقس
للعصور، وعرض للذين أرخوا للأدب فى الشرق والغ
وأشار إلى مناهجهم وطرائقهم.

ونحن نلاحظ أن الدكتور شوقى يبدأ منذ التمه
تحديد موقفه وبيان وجهة نظره، والاهتمام بالجوانب ا

(١) المصدر السابق ص ٧.
(٢، ٣) المصدر السابق ص ١١.

يحدثنا بعد أن يعرض مناهج التأريخ للأدب بأن مؤرخ
ب العربى إما أن ينهج هذا النهج الواسع، وإما أن
النهج الثانى الذى أشرنا إليه، فيقف بتاريخه عند
اء والكتاب مفصلاً الحديث فى شخصياتهم الأدبية،
ثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية
سية، ومتوسعا فى بيان الاتجاهات والمذاهب الأدبية التى
ت فى كل عصر. ومن المحقق أن المؤرخ للأدب العربى
الخاص يأخذ الفرصة كاملة كى يؤرخ لهذا الفرع
، من فروع الأدب بالمعنى العام، وهو الفرع الذى
، فيه الجمال الفنى والتأثير فى ذوق القارئ والسامع،
ما يمكن أن يثار فى نفسيهما من مشاعر وعواطف
، فهو يؤرخ للأدب الخالص تاريخا مفصلاً لا يكتفى
النبذ الموجزة عن الاتجاهات والفنون الأدبية،
لتراجم المجملة عن الشعراء والكتاب، على نحو
نع (بروكلمان) فى تاريخه العام، بل يكتب فى ذلك
ل الواسعة، مطبقا المناهج الحديثة فى دراسة الأدب
، ومن أنتجوه من الأدباء»[1].

---

[1] المصدر السابق والصفحة.

ولقد حاول أن يطبق هذه الآراء والأفكار على دراس
الأدب الجاهلى، ففى الفصل الأول الذى جاء بعد
التمهيد درس الجزيرة العربية وتاريخها القديم، فوقف
معالمها الجغرافية وبيئاتها الطبيعية والمعنوية، وعرفنا
الساميين والعرب الجنوبيين وعرب الشمال، وتناول الن
والآثار، وعلى هديها عرفنا نشأة الكتابة العربية

وفى الفصل الثانى: حدَّد معنى العصر الجاهلى، و
عن الإمارات العربية فى الشمال (الغساسنة وا
وكندة). كما درس مكة وغيرها من مدن الحجاز، و
القبائل البدوية، وما كان يدور بينها من حروب مس

وفى الفصل الثالث: درس الحياة الجاهلية: بأ
الاجتماعية ومعيشتها ومعارفها وأديانها.

وفى الفصل الرابع: تحدث عن اللغة العربية: بعنا
السامية المغرقة فى القدم، ولهجاتها القديمة، ونشوء الف
واللهجات الجاهلية ، وسيادة اللهجة القرشية.

ثم توالت الفصول بعد ذلك حتى وصلت إلى ا
الثانى عشر، فالخاتمة. عرفنا خلالها رواية الشعر ا
وتدوينه، فعرَّفنا على الرواة المحترفين والتدوين

نتحال فى الشعر، وأهم مصادر الشعر الجاهلى.
ثم عرفنا خصائص الشعر الجاهلى، ونشأة الشعر اهلى، وتفاوته فى القبائل. ومن أهم الموضوعات التى لها الباحث فى هذا المجال تقريره أن الشعر الجاهلى شعر ئى، ووقف عند موضوعاته وخصائصه المعنوية واللفظية.

ثم درس بعد ذلك بالتفصيل أربعة شعراء هم: امرؤ بس، والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى والأعشى. ن يقف فى دراسة كل شاعر عند قبيلته، وحياته، وديوانه، مره.

ثم درس بعد ذلك شعر طوائف من الشعراء: كشعر سان والصعاليك واليهود والنصارى، ومحَّص القول فى الجن والعفاريت. وفى آخر الكتاب خصص الفصل نى عشر للنثر الجاهلى، درس فى خلاله صور النثر هلى ، كالخطابة، والأمثال، وسجع الكهان.
هذه هى العناصر أو رءوس الموضوعات التى تناولها كتور شوقى ضيف فى المجلد الخاص بالعصر الجاهلى، ، من خلالها حاول أن يقدم لنا فى إطار المنهج التاريخى هب الفنية التى سادت الشعر والنثر فى العصر الجاهلى،

وملامح التطور والتجديد التى برزت على امتداد هذا العـ
وطابعه الشعبى، وتأثره بالبيئات المادية والمعنوية فى
الجزيرة العربية، مع التحليل العلمى الجاد، والفحـ
الدقيق، والتأمل العميق، والتذوق الخصب، مما جعل
الكتاب قريبًا إلى كتب الدكتور شوقى ضيف السابقة، وا
حملت اجتهاداته وريادته للدراسة الأدبية.

ولكن العيب الأساسى فى الكتاب ينبع من طبيعة المنه
التاريخى وتقسيم العصور الأدبية تبعًا للعصور السياسية.

سوقى ضيف وتاريخ الأدب العربى*

(٢)

ل أضاف الدكتور شوقى ضيف جديدًا لمناهج الدراسة
ة بكتابه هذا عن «تاريخ الأدب العربى»؟ أو بمعنى
هل طوَّر منهج الدراسة التاريخية فى هذا الكتاب؟
حقق هدفه الذى رسمه لتلك الدراسة؟

فى ضوء استعراضنا المتأمل الفاحص للمجلد الأول
لعصر الجاهلى، نقرر أنه أضاف أشياء جديدة لها قيمتها
ة الهامة.

ند ساعدته الكشوف العلمية وتقدم الدراسات
فية، على تحديد العصر الجاهلى تحديدًا دقيقًا. ودراسة
ت الجغرافية التى نشأ فى ظلالها الأدب العربى.

---

* المقالة الثالثة (العدد ٧٥ ديسمبر ١٩٧٩).

والوقوف على طبيعة الظروف الاجتماعية والنفسية لشع
العربية منذ أقدم العصور.

كما استخدم منهجًا علميًّا دقيقًا وَثَّقَ من خلاله كثيرًا
الشعر الجاهلى، وبين كثيرا من مصادر هذا الشعر، بح
أصبح لدينا قدر كاف من الشعر الجاهلى، مؤكد النسبة
أصحابه من شعراء العصر الجاهلى.

وهذا القدر المحقق من الشعر الجاهلى هو الذى م
الدكتور شوقى ضيف من إعطاء صورة متكاملة لهذا الع
بالإضافة إلى دراسته الجمالية لخصائص هذا الشعر
الناحيتين اللفظية والمعنوية، ودراسته المتعمقة المس
لأربعة من أكبر الشعراء فى العصر الجاهلى.

وبذلك قضى على الآثار الضارة التى أشاعتها ف
الانتحال، والشك فى شعرنا الجاهلى.. وقدم للباحثين وظ
الدراسات الأدبية تاريخًا موثقًا مبسوطًا للأدب فى الع
الجاهلى، وألقى الضوء الكامل على الأدب والأدباء فى
العصر، «بحيث تكشفت شخصيات الأدباء انكشافًا ك
بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية». .
هو الهدف الذى توخاه من تلك الدراسة، ولذلك يمكن

ل: إن الدكتور شوقى ضيف نقل الدراسة التاريخية
ب من مرحلة «الاتجاهات التاريخية» إلى مرحلة جديدة،
مرحلة «المدارس التاريخية» فى دراسة الأدب العربى،
ا كسب عظيم للمنهج التاريخى، ولكن يبقى القصور فى
المنهج واضحًا أشد الوضوح. وهو ينعكس على دراسات
يستخدمونه، ولم يسلم كتاب الدكتور شوقى ضيف عن
صر الجاهلى» من هذا القصور بطبيعة الحال.

فقد اقتضت طبيعة التحديد الزمنى للعصر الجاهلى أن
ث الدارس عن بعض الشعر وبعض الشعراء وبعض
اهر الفنية فى هذا الإطار الزمنى المحدد، وأن يتوقف
انتهاء العصر من الناحية التاريخية، وليس حتما أن
ى التقاليد الفنية والجمالية بانتهاء فترة سياسية أو
نية، فقد تمتد تلك التقاليد إلى العصر الذى يجىء بعد
.

أعتقد أن تقاليد الشعر الجاهلى وقيمه الفنية والجمالية
ره التعبيرية، قد امتدت إلى عصر صدر الإسلام
سر الأموى، بل لقد برزت فى شعر بعض شعراء العصر
سى أيضا.

فالتقاليد الفنية والقيم الجمالية والخصائص التعبـ
تتكون ببطء، وعلى امتداد فترات طويلة من الز
ولا يمكن أن تزول بطريقة فجائية، كما يحدث فى
التاريخ أو الاقتصاد، فقد ينتهى عصر تاريخى بانق
فجائى، يجىء بعده عصر آخر، ويتولى الصدارة ر
آخرون. ولكن هذا الأمر لا يحدث فى مجال الأدب و
والفكر والثقافة، فربط عصور الأدب بالعصور التار
لا يستقيم من الناحية العلمية، ولهذا يلجأ مؤرخو ا
العربى إلى شىء من الحيلة، فيسمون العصر الذى يجى
العصر الجاهلى «عصر صدر الإسلام»، ويسمون شعـ
بالشعراء المخضرمين.

وفى رأيى أن «مصطلح الخضرمة» ليس مصطلحًا
ولا جماليًّا، ولكنه مصطلح تاريخى ينطبق على الش
الجاهليين الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام، ولا يعقل
يحدث تغيير فنى أو جمالى بهذه السرعة، فى شعرهم،
يظل شعرهم محتفظًا بتقاليد الشعر الجاهلى وقيمه
والجمالية.

وقد حاول الدكتور شوقى ضيف أن يخرج من
المأزق، فخصص مجلدًا واحدًا سماه «العصر الإسلا

ل بعضه لشعراء صدر الإسلام، وبعضًا آخر للشعر
وى.

وفى رأيى أن تسمية العصر الإسلامى على جزء من
ريخ تسمية غير دقيقة، فنحن لا نزال نعيش العصر
سلامى... فالتاريخ الإسلامى قسيم للتاريخ الوثنى، أو
ريخ المسيحى، أو التاريخ اليهودى، وليس قسيمًا للعصر
وى أو العباسى أو الحديث، فكل هذه العصور تاريخ
ٰمى. والأدب الإسلامى - على ذلك - ليس قسيمًا
ب الأموى، ولا للأدب العباسى، ولا للأدب الحديث،
كل هذه الآداب يمكن أن تكون بالمعيار التاريخى أدبًا
لاميًّا، وهـذا هو المـأزق الذى يـواجه مؤرخى الأدب
بى، الذين يصطنعون المصطلحات التاريخية فى دراسـة
ب.

هذه مناقشة تحتاج إلى تفصيلات كثيرة، أتركها حتى
غ من مناقشة قضايا العصر الجاهلى التى يثيرها المنهج
يخى، وهى قضايا كثيرة ومتشعبة، ويكفى أن نقف على
ا، أو على ما له علاقة بطبيعة الأدب، أو ما يسمى القيم
ة والجمالية.

ولعل أهم عيب يوجه إلى المنهج التاريخى من
الناحية، هو أن تقسيم العصور الأدبية حسب العص
التاريخية والسياسية، يصيب الدرس الأدبى - على الأقل
ببعض القصور فى تتبع النواحى الفنية والجمالية.

ويفرض على الباحث مهما كان خصب التناول ع
التذوق، الوقوف عند حد معين فى دراسة الشعر من النا
الجمالية، ومن هنا تتحول الدراسة الأدبية إلى لون
التاريخ الأدبى، تقف على سطح النواحى الجمالية، ولا
إلى الأعماق. ويصبح مجال الإبداع والابتكار أمام الدا
محدودًا.

وعلى الرغم من أن الدكتور شوقى ضيف من
الباحثين على التذوق الأدبى، والنفاذ إلى جوهر التج
الشعرية، ومن أدقهم فهمًا لطبيعة الأدب العربى، وتـ
التجارب الجمالية، بالرغم من كل هذا، فإنه اضطر فى الم
الأول من موسوعته الرائدة «تاريخ الأدب العر
«العصر الجاهلى» إلى أن يكتفى بعدة صفحات يتحدث
عن خصائص الشعر الجاهلى، وعدة صفحات أخرى تتـ
شعر الشعراء الأربعة الذين تناولهم فى الكتاب.

وأنا أعترف أن الصفحات التى تناول فيها الدكتور
ب الخصائص المعنوية للشعر الجاهلى صفحات رائعة،
فى رأيى من أحسن صفحات الكتاب، ولكن طبيعة
ج التاريخى فرضت عليه أن تقف هذه الصفحات الرائعة
حد معين فى تناول الظاهرة الفنية والجمالية للشعر
بى، وحرمته من الابتكار والإبداع فى تفسير تلك
اهر.

يمكن أن نأخذ مثالاً يتناول فيه الباحث ظاهرة من
ر الشعر الجاهلى، ونوازن بينه وبين باحث آخر يتناول
هرة نفسها، والأبيات الدالة عليها، ولكنه لا يلتزم
ج التاريخى فى دراسته.

سأختار تفسير الدكتور شوقى ضيف لما سماه الحسية فى
ر الجاهلى، حيث يرى أن هذه النزعة تسيطر على
عر الجاهلى، «فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس
سانية، ولا فى أعماق الأشياء الحسية... ولنرجع مثلاً إلى
هاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس، والبدر، والبيضة،
ية، والرمح، والسيف، والغمام، والبقرة، والظبية،
اة. ويشبه أسنانها بالأقحوان، وبنانها بالعنم، وثغرها

بالبلّور»[1].

ويسرد هذه النزعة الحسية لطبيعة العالم الحسى الم
حول الشاعر، والذى يستقى منه أخيلته. ويرى الد
شوقى أن تمسك الشعراء بهذه الحسية، جعلهم يدققو
أجزاء الأشياء التى يصفونها ويصفون تفصيلاتها، و
نحاتون يصنعون التماثيل.

ويرى أن هذه الحسية أفقدت هؤلاء الشعراء الاتس
معانيهم، «فما يقوله طرفة فى الناقة، يقوله فيها غير
يقوله امرؤ القيس فى بكاء الديار يقوله جميع الشعرا

ويرى الدكتور ضيف أن ضيق معانيهم لم يحل بينهم
النفوذ إلى دقائق كثيرة وصور طريفة. كما يرى أ
يعرضوا علينا معانيهم الحسية بصورة جامدة تبعث الم
نفوسنا «فقد أشاعوا فيها الحركة، وبذلك بثوا فيها
من الحيوية. وما من شك أن هذه الحركة كانت مشتق
حياتهم التى لم تكن تعرف الثبات والاستقرار، فهم
راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ، ومن ثم كانو

(١) العصر الجاهلى ص ٢٢١.
(٢) المصدر والصفحة.

نوا الحيوان وصفوه متحركًا، لا واقفًا جامدًا، وارجع إلى
ب طرفة لناقته فستجده يصفها وهى سائرة به فى طريق
غاية تصبو إليها نفسه».

ولاشك أن هذه الأحكام الفنية التى أطلقها الدكتور
ى ضيف على الشعر الجاهلى تحتاج إلى مناقشة ومعاودة
، ولكن يكفى أن نقرر أن الخضوع لمقتضيات المنهج
يخى، كان له أكبر الأثر فى تلوين هذه الأحكام. ولقد
س ذلك على تذوق الدكتور للشعر، فعندما حاول أن
ق قول طرفه:

، كألواح الأران نَسَأْتُهـا على لاحب كأنه ظهر بُرْجُدِ

قف عند المعانى الظاهرة للبيت فقال:

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط يجد فيه جمالا، كما يجد
(أى الناقة) روعة وبهاء، فيستمر فى وصفها وكأنه تدله
بًّا، فهو لا يترك شيئًا دون أن يقيده، وكأنه يصنع لها
، يريد أن يحفره حفرًا فى أذهان العرب الذين كانوا
ون بنوقهم، ويودون لو أتيح لهم من ينصبها لهم تمثالا
»[1].

---

[1] المصدر السابق ٢٢٣.

ثم يستطرد الدكتور شوقى فيعلل بهذا الحكم
أوصافهم ويقول: «وعلى هذا النحو كانوا يصفون خي
وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف ا
وبقر الوحش وثورها، والأتن وحمارها، ويصورونها لنا
تجرى فى الصحراء، تطلب الماء، والصائد إمّا فى ط
بكلابه، أو على الماء مستترًا منها، وما تلبث أن تنشب م
هائلة لا تقل عن معاركهم هولاً»[1].

وهذا تذوق مرهف، وتحليل دقيق، وتعليل ذكى، و
جميعًا تقف عند سطح التجربة ودلالاتها الحسية ومع
القريبة.

ولولا المنهج التاريخى لنفذ الدكتور شوقى ضيف
أعماق التجربة، واصطنع لها رموزًا ودلالات بعيدة، كما
مثلا الدكتور مصطفى ناصف بهذا النموذج نفسه فى
(دراسة الأدب العربى).

ومعذرة، فأنا مفتون بهذا الكتاب للدكتور ناصف،
أثر تأثيرًا عميقًا فى عقلى وذوقى، ولهذا لا أكف عن الإ
إليه والثناء على صاحبه.

(١) المصدر والصفحة.

وهو على أية حال يعطينا - فى هذه المناسبة - النموذج
نى المتحرر من المنهج التاريخى، والذى يصل إلى أعماق
جربة الشعرية عند الشعراء الجاهليين.

لقد أعاد تشكيل الدراسة الأدبية من جديد - وهو
اجه الأفكار التى بثها الدارسون حول الشعر الجاهلى،
سروا بها مواقف شعرائه، فهو يرى أن الشاعر الجاهلى الذى
طب الأطلال لا يتحدث عن عاطفة شخصية، وإنما يحاور
سه فى معنى الحياة، ويلتمس لها العون من خطاب الطلل،
و الماضى الذى ذهب ولن يعود «هو قطعة من الحياة تهزم
ا مضى منها جزء... الطلل المرئى رمز للماضى الذى
يستطاع رده»[1].

ويرى الدكتور ناصف أن الشاعر الجاهلى «يروع
كرة الحياة الذاهبة»، ويعالج هذا الشعور بالبكاء على
لل الذى يُجسد مشكلة الموت «الطلل كان بالأمس دارًا
رة بالبشر وصناع الحياة، لم يكن هناك ما يعكر صفو
ياة، ولكن الرحيل يطرأ دومًا على موقف الإنسان،
حلة هى التى نغصت شعور البدوى الفنان بالحياة،

١) الدكتور مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربى ٢٣٦.

وجعلته يؤمن بأن هذا العنصر المستمر هو الذى يعنى الـ
والحياة»[1].

ومن هنا ينشأ التوتر فى نفس الشاعر الجاهلى بين الو
بالحاضر وبين هذا الماضى الذاهب، وكل شىء حوله يج
يتأمل هذا الماضى ويوازن بينه - دائمًا - وبين الحاض
النؤى، والأثافى، والأحجار التى فى طريقه وهو يرتحل، أ
بالعظام النخرة المتخلفة عن رفات الميت، وهو من أجل
يصيح ويبكى، ويستوقف الصحب. ليشعر بالأمان، وليش
أنه موجود.

إن الشاعر الجاهلى - كما يرى الدكتور مصط
ناصف - يملك قوة الكلمة. قوة الشعر قوة الفن، وهو
أجل هذا «يريد من خلال القوى اللغوية شبه السحر
أن يزيل التوتر الناشئ عن الشعور بالموت»[2].

فالدارس يعلل فن الشاعر الجاهلى من خلال موقفه
فكرة الموت، ويفسر فكرة بكائه على الأطلال، على ض
هذا الشعور. لأن الطلل يتحول عنده إلى رمز للحياة ا
يعبث بها الموت.

(١) المصدر السابق ص ٢٣٨.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠.

والرمز الثانى - وهو رمز أساسى أيضًا - للحياة التى
بث بها الموت - هى الناقة. وهنا يصل الدكتور مصطفى
اصف إلى تعليل فكرة وصف طرفة بن العبد لناقته،
نتركه يصور لنا تلك الفكرة بأسلوبه الرائع.

«لنضرب مثلا بطرفة. لقد وصف ناقته وصفًا مسهبًا فى
لقته المشهورة، فماذا يعنى هذا الوصف؟ هنا تجد الباحثين
ولون إن الشاعر دقيق الملاحظة ككل بدوى، ومعنى ذلك
هذا الوصف لا يحمل قيمه بمعزل عن أسبابه وظروفه
عاة.. هذه الناقة فى الشعر الجاهلى هى الرمز الثانى
حياة... الناقة تبدو حافلة بالحياة والقوة عادة، ولكن انظر
تطور القصيدة، تَرَ إحساس الشاعر بفكرة المصير..
اقة تبدو حيوانًا مقدسًا، كل ما فيها يحمل طابع القداسة،
أجل ذلك يقف عند كل عضو فيها، ولو كانت الناقة
تحمل معنى روحيًا هامًا لما كان فى وسعنا أن نفهم هذا
قوف المتأنى عند كل عضو فيها... الشاعر مشغوف
تأمل فى أجزاء الناقة، كما كان يشغف بالتأمل فى بقايا
ار أو الرسوم، هذه الأعضاء يجب أن يفكر فيها القارئ،
على ذكر من تلك الآثار القديمة البالية، تلك هى عظام
ت، وهذه آثار الحياة يتشبث بها الشاعر. الشاعر إذن

يعيش فى توتر»[1].

والشاعر الجاهلى من خلال وصفه للناقة التى هى
للحياة يريد أن يخفف إحساسه الحاد بفكرة الموت «ير
أن يعوذ حياة الإنسان من أجل أن يخف إحساسه، وو
وجدانه لهذا الموت الثقيل»[2].

ووصف الناقة والفرس وتشبيههما المتلاحق بصور الح
المتفجرة النابضة تعنى - كما يقول الباحث - أن الشا
يعبر عن رغبته بخدمة الإحساس بوفرة الحياة، فالناقة
الفرس معوذة مزودة بقوى كثيرة، وكأن الشاعر يريد
يراها قادرة على مواجهة كل عدو وكل نازلة. وقوة البع
فى الأساطير، ترجع إلى أن تكون من عناصر متفرقة
تجتمع فى أحد سواه. ومن أجل ذلك قلنا إن مأساة الشع
بالموت لايمكن أن تنفصل عما نسميه ببساطة «وص
الفرس» و «وصف الناقة»[3].

على هذا النحو من الدرس المتأمل الواعى، والتذ

(١) المصدر السابق ص (٢٤٣، ٢٤٤).
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٦.
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٧.

ف الثرى أثار الدكتور مصطفى ناصف إلى معلقة
، وفسر رموزها وبين مدلولاتها، وربط بين هذه الرموز
لات، وبين إحساس الشاعر بالموت والفقد المستمر.
أساس جديد من الدرس الأدبى لا يرتبط بمنهج من
لمناهج التى تقيد حرية الدارس فى الإبداع والابتكار.
هذه الرؤية المتكاملة التى تكونت عند الدكتور
مى ناصف وفسر من خلالها بكاء الأطلال ووصف
والفرس وحيوانات الصحراء والطبيعة، ما كان
ن أن تنمو وتزدهر على هذا النحو، لو أنه كان يدرس
ب العربى من خلال المنهج التاريخى.

نا أخذت التجربة دلالات بعيدة وتحولت إلى رموز
ة... حتى الأبيات المفردة تأخذ دلالات أخرى فى إطار
الرؤية الجديدة. ولنتأمل تناول الباحث لبيت طرفة
تناوله الدكتور شوقى ضيف من قبل، وكيف أخذ
مختلفة وطعمًا متفردًا.

ول الدكتور مصطفى ناصف: «ولكن لننظر معاً فى
طرفة فى وصف ناقته:

كألواح الأران نَسَأْتُهـا على لاحب كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ

يقول طرفة إن ناقته موثقة الخلق.. ولكن كيف
طرفة هذا الجانب؟ لقد قال إنها تشبه ألواح تابوت ا
ثم قال بعد ذلك: إننى زجرتها من أجل أن تسير فى
يشبه الثوب المخطط... والحقيقة أننا إذا نظرنا مليًّا
الصورة، وجدنا الشاعر قد عبث بفكرة القوة من
خفى، الناقة تحمل صاحبها كما يستوعب التابوت الم
الناقة - إذن - من هذه الوجهة، ليست هى مجرد الإ
الذى يريد أن يبتغى لنفسه القوة والسلامة. ولكنها
حياة أخرى معدة للعبث بحياة الإنسان»[1].

الدكتور مصطفى ناصف لم يفسر - إذن -
الجاهلى كما كان يفسره القدماء أو كما يفسره بعض
الذين يلتزمون مناهج - كالمنهج التاريخى مثلا - تح
قدرتهم على الغوص فى أعماق التجربة...

إنه يتخذ من الفرس عند الجاهلى رمزًا لحياة الإ
ويجعل الناقة رمزًا لمفهومات كثيرة، وهكذا يصنع
الدلالات التى تشعها القصيدة. ويرى أننا إذا «كنا
بصرًا بشئون المعنى وطرقه، واستقلال النص وكرامته،

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧، ٢٤٨.

طيع أن نفسر الشعر تفسيرات مختلفة من جيل إلى
... لكل جيل مطلبه من الشعر، ومن أجل ذلك يرى
ر من زاوية معينة، فإذا أقبل جيل جديد، حرص على
عيد فهم العلاقة بين ماضى الشعر وحاضره»[1].. ولعل
ذه الطريقة من الفهم والتذوق والتحليل ما يزيد النص
ى ثراء وغنى. ولا يزعج الدكتور ناصف، قول الذين
ن فى هذه الرؤية تناقضا مع الإحساس التاريخى، فهؤلاء
أيه يقرءون النصوص الأدبية قراءة منطقية تعتمد على
ء الأسباب ونتائجها، ولا يدركون الماضى إلا فى مضيه،
سون أن الماضى يوجد فى الحاضر أيضًا ولهذا يروعهم
أ إعادة فهم النصوص القديمة والحديثة». الذين
ون التاريخ إدراكًا وجدانيًّا متعاطفًا مباشرًا... ويرون
إحساس بالعمل الأدبى يتغير دائمًا، وأن فهمه من أجل
ينمو نموًّا مستمرًّا»[2].

ذه الرؤية الخاصة للشعر الجاهلى، وهذا التذوق الجديد
ى طرفة من الحياة والوجود والموت والفناء، وهذا

المصدر السابق ص ٢٠٤.
المصدر السابق ص ٢٠٤، ٢٠٥.

التفسير للبيت الذى أشرنا إليه... كل هذه الأشياء
عن الموقف والتذوق والتفسير عند الدكتور شوقى
وأنا هنا لا أعقد موازنة بين أستاذنا الدكتور
ضيف والدكتور مصطفى ناصف ، ولكن أعقد موازن
منهج ومنهج، لأثبت أن طبيعة المنهج التاريخى فى
الأدب العربى لا تعطى الباحثين الحرية فى إعادة تن
التجارب الأدبية، وفهمها فهمًا يتلاءم مع إدراكنا المع

شوقى ضيف وتاريخ الأدب العربى*

(٣)

ن أتوقف طويلاً مع المجلد الثانى من موسوعة «تاريخ
، العربى» للدكتور شوقى ضيف، وهو الجزء الخاص
صر الإسلامى». فقد بينت فى المقالة السابقة رأيى فى
التاريخى فى مجال الدراسة الأدبية وأنا أتحدث عن
الأول الذى خص به «العصر الجاهلى». وأوضحت
، هذا المنهج، وما قلته هناك ينطبق على هذا المجلد،
يد أن أكرر تلك العيوب مع كل حديث عن أجزاء
لموسوعة الرائدة، وإن كان يتحتم علىَّ أن أكرر فى
الحديث عن كل جزء، أن الدكتور شوقى ضيف قد
هذا المنهج وأعطاه دفعة كبيرة، وأدخل عليه روافد من
، الجمالى، والتناول الفنى المرهف. والتوثيق العلمى
، والفحص الناقد المتأنى، وحوله إلى ما يمكن أن
«المدرسة التاريخية» فى الدرس الأدبى.

---

* الرابعة (الثقافة - العدد ٧٦ - يناير ١٩٨٠).

وهذا الجزء ينقسم - كما أراد له مؤلفه - إلى قسمين
كتابين على حد تعبيره: الكتاب الأول فى عصر
الإسلام، والكتاب الثانى فى «عصر بنى أمية».

فى الكتاب الأول تحدث عن الإسلام وما جاء به من
روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية. وتحدث عن أثر الـ
والحديث فى اللغة والأدب والحياة.

ثم تحدث بعد ذلك عن الشعر والنثر فى عصر
الإسلام، ولاحظ كثرة الشعر والشعراء المخضرمين
وقف بصورة خاصة عند شعر الفتوح والخطابة، و
بالتفصيل خمسة شعراء فى هذا «الكتاب الأول»
حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، ولبيد ، والحُطيئة، وا
الجعدى.

وفى الكتاب الثانى تحدث عن مراكز الشعر الأم
المدينة، ومكة، ونجد، وبوادى الحجاز، والكوفة، والبـ
وخراسان، والشام، ومصر.

كما فحص بدقة عمليات امتزاج العرب بالأمم الأج
وتناول عمليات التعريب، وما صاحبها من تحول حض
عميق أثر فى اللغة والأدب.

رس بصفة خاصة شعر الهجاء وشعر السياسة وشعر
. وفى هذا المجال تحدث عن شعر النقائض، وشعر
طل، والفرزدق، وجرير).

اول شعراء الخوارج والشيعة، وشعراء الغزل الصريح
، العذرى، كما درس شعر الزهد وشعر اللهو والمجون
الطبيعة.

تحدث عن الخطابة والخطباء، وازدهار الخطابة فى مجال
ة والوعظ، ووقف عند الكتابة والكتاب.

ى الدكتور شوقى ضيف أن الشعر ازدهر فى عصر
لإسلام، ويحدثنا فى مقدمة الكتاب عن هذه الفكرة
«ودفعتنى النصوص الكثيرة فى عصر صدر الإسلام
س الفكرة التى شاعت فى أوساط الباحثين من عرب
ِقين، إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر
حيل فى أشعار المخضرمين، وهو زعم غير صائب، بل
م يسرف فى تجاوز الحق، فقد أَتَمَّ الله على هؤلاء
، نعمة الإسلام، وانتظم كثيرون منهم فى صفوف
ين فى سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفى الفتوح،
ذلك كله يستلهمون الإسلام ويعيشون له، ويعيشون

به، يريدون أن ينشروا نوره فى أطباق الأرض، وقد
يصدرون عنه فى أشعارهم صدور الشذى عن ال
الأرجَه. وبالمثل صدروا عنه فى نثرهم، فإذا هم يستح
فنونا من النثر ينشئونها إنشاء... إذ أنشئوا - على
القرآن الكريم - آيات بديعة من المواعظ الدينيـ
أنشئوا ضروبًا من المعاهدات والرسائل الس
والتشريعية»[1].

ويحدثنا عن عصر بنى أمية أنه كان «عصر
العرب بغيرهم من الأمم، وانسياحهم فى مشارق ا
ومغاربها، مما أذكى فى نفوسهم جذوة الشعر، فإذا هو
أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة و
والشام ومصر فحسب، بل أيضًا خراسان التى
مؤرخو أدبنا مع ازدهار الشعر فيها ازدهارًا رائ

والحق أن الدكتور شوقى ضيف قد أبرز عصر ب
إبرازًا جيدًا خصبًا، وحدد ملامح التجديد فى هذا
تحديدًا دقيقًا عميقًا، وبخاصة وهو يتحدث عن

(١) الدكتور شوقى ضيف: العصر الإسلامى (دار المعارف ١٩٧٨
الثامنة).
(٢) المصدر السابق ٥، ٦.

قائض، أو عن الشعر السياسى الذى عكس نظريات وارج والشيعة والزبيريين فى الحكم والسياسة والصراع كرى، أو وهو يتحدث عن ازدهار التدوين «فيما يتصل سلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث ى»[1].

كما حدثنا عن مصنفاتهم «فى المغازى والتاريخ وقصص نبياء وفى المثالب والمواعظ، وفى مسائل العقيدة من قدر ير قدر، وفى الأغانى والمغنين».

ولكن تبقى عيوب المنهج التاريخى، وهى تلاحق رسين، فتصيب دراساتهم ببعض الخلل وببعض القصور. نسبة الخلل والقصور، أو تزيد بحسب قدرة الدارس فته ومواهبه فى التأصيل والتذوق والتحليل والكشف بتكار.

وقد أخذ المجلد عن «العصر الإسلامى» نصيبه من هذا صور وذلك الخلل، وأرجو أن يغفر لى أستاذنا الدكتور قى ضيف هذا الوصف للمنهج التاريخى، فلقد حاولت أن غ هذه التقسيمات التى جاءت فى هذا المجلد بكتابيه، فلم

(١) المصدر السابق ٦، ٧.

أستطع. وحاولت أن أجد أساسًا جماليًّا وفنيًّا، أدرك
خلاله تلك الأحكام والأفكار التى بثها عبر هذا المجلد
أتمكن، وظل الأمر محتاجًا - فى نظرى - إلى جدل ومعا
نظر.

ولعل أستاذنا الجليل لا يضيق بهذا الحوار أو ذ
الجدل، فهو عندنا فى المكانة الرفيعة من الإجلال والتقد

والقضية التى سأناقشها فى بداية مناقشاتى لهذا المج
هى غلبة الدراسات المساعدة، أو الخلفيات التاري
والاجتماعية والفكرية والروحية، فقد أخذت هذه الخلفي
نحو نصف الكتاب، فى حديث مجرد عن الإسلام وما أش
من قيم، وعن القرآن والحديث، والمراكز التى ازدهر ف
الشعر، وكان يمكن أن يقتصر الأمر على صفحات معقو
ثم يتحدث عنها بعد ذلك حديثًا مباشرًا وهو يتناول الش
والنثر فى هذين العصرين.

كان هذا الاتجاه سيوفر عليه جهدًا شاقًّا، ويفسح المج
أمامه للدراسة الفنية، ولكن يبدو أن طبيعة المنهج التاري
تحمل فى تضاعيفها قيودًا عسيرة على حرية الدارس
والباحثين.

مسألة أخرى أريد أن أناقشها فى هذا الكتاب، تتصل
رة الخضرمة والشعراء المخضرمين. وقد قلت من قبل إن
ضرمة مصطلح تاريخى، أو إنْ شئت الدقة، واقعة تاريخية.
ن عندما نتحدث عن «أبى ذؤيب الهذلى» أو «حسان
ثـابت» أو «زهـير بن أبى سلمى» أو ابنـه «كعب»
لبيد» أو «الحطيئة» أو «النابغة الجعدى» باعتبارهم
رمين، فإن ذلك يعنى أن هؤلاء الشعراء قضوا أعوامًا
عمرهم فى الجاهلية، وعاشوا بعد مشرق الإسلام أعوامًا
ى، بصرف النـظر عن تطور شعـرهم بعد الإسـلام أو
تطوره، وتطور الشعر وتجدده مسألة فنية وقضية جمالية،
رتبط ارتباطًا مباشرًا بالتاريخ أو المكان، وإنما ترتبط
ر أخرى مركبة ومعقدة يمكن أن نسميها «التقاليد
لية». فلكل حضارة أو أمة أو مجموعة من الناس
ليد جمالية» تتجلى فى طريقة التعبير، ووسائل التفكير
سوير، والقدرة على الإيحاء، وإدراك الأدوات التى تجعل
اغة الفنية للأدب موحية مؤثرة.

لقد ظلت «التقاليد الجمالية» للأدب الجاهلى بشعره
سائدة فى الفترة الأولى التى سماها الدكتور شوقى

ضيف - وغيره من الدارسين - عصر صدر الإس
بصورة كاملة. وظلت سائدة أيضًا بصورة غالبة ومؤثرة
الأدب بكل أجناسه فى عصر بنى أمية، وامتدت على نحو
إلى العصر العباسى، ولم يحدث التطور الكبير إلا فى
العصر، حيث نشأت (حساسية فنية) جديدة، تختلف
الحساسية الفنية التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى، وع
بنى أمية، وهنا تطور الأدب تطورًا عميقًا بصورة متكا
لست أنكر وجود بعض الروافد التى ظلت فى عصر
العباس أيضًا تحمل صورًا من «التقاليد الجمالية» التى ك
سائدة فى العصرين الجاهلى والأموى، ولكن ظلت
الروافد مجردة أنماط متميزة، لا تشكل الحساسية ا
العامة، بل لقد استمرت هذه الأنماط تظهر على نحو م
كل عصور الأدب العربى.

ولست أنكر أيضًا ظهور أنماط جديدة متطورة، تخ
عن «التقاليد الجمالية» التى كانت سائدة فى العصر الجا
وعصر بنى أمية. ولكنها ظلت أنماطًا خاصة، لم تستطع
تشكل الحساسية الفنية.

وفى رأيى: أن على دارس الأدب العربى - إذا أرا

خ له – أن يفحص بدقة تلك «التقاليد الجمالية». وأن
ع – فى ريث وأناة – «الحساسيات الفنية» على امتداد
ريخ، ويرصد تطور تلك الحساسيات. ويقف بالدرس
صل عند كل حساسية فنية من تلك الحساسيات، وبذلك
ول تاريخ الأدب العربى، تاريخًا فنيًّا تتجلى فيه «التقاليد
لية»، وتتضح طرائق التفكير والتعبير ووسائل الصياغة
صوير. وأعترف أن مصطلحى «التقاليد الجمالية»
الحساسية الفنية» اللذين أعنيهما فى هذا المجال فى حاجة
إيضاح دقيق وتحديد صارم، ليس هنا مجاله، ولكنهما –
أية حال – لا يعنيان التغير فى موضوعات الأدب، فلا
أن أقول إن هناك «حساسية فنية جديدة» أو «تقاليد
ة» جديدة لمجرد أن الشعراء المخضرمين بدءوا يذكرون
صائدهم ألفاظًا ومعانى أو تراكيب تتردد فى «القرآن»
الحديث النبوى». فقد تتردد تلك الألفاظ والتراكيب
نى فى قصائد الشعراء، ويظل مع ذلك شعرهم سائرًا
نهجه القديم وتقاليده الجمالية.

ن هنا أختلف مع أستاذنا الدكتور شوقى ضيف فى
لفكرة التى حاول أن يثبتها، وهى أن الشعر فى صدر

الاسلام - وكذلك النثر - تأثر تأثرًا كبيرًا بالإسلام،
أن صَوَّرَ الشعراء تجاربهم فى الفتوح الإسلامية، أو ت
بالقيم الروحية والفكرية التى صاحبت مشرق الإسلا
أنشئوا «آيات بديعة من المواعظ الدينية، كما أ
ضروبًا من المعاهدات والرسائل السياسية والتشري
على حد تعبيره - ولكننى أتفق مع هؤلاء الذين قال
إنهم «يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نح
أشعار المخضرمين»[1] وعندى أن الشعراء فى صدر الإ
بل وفى عصر بنى أمية، قد تأثروا شخصيًّا بالإسلام و
بعضهم فى سبيل نشر الدعوة، وظهرت أصداء هذا
على بعض معانيهم، وبعض تعبيراتهم، وبعض ألف
ولكن شعرهم ظل فى إطار القصيدة الجاهلية من ا
الفنية خاضعا «لتقاليدها الجمالية» و «حساسيتها الـ

ليس معنى ذلك أننى أنكر أثر الإسلام فى الشعر ا
فهذا ما لم يطف بذهنى على أى نحو من الأنحاء، ف
أن الإسلام أثر أعمق تأثير فى الحياة الإنسانية
وأحدث أكبر التحولات الحضارية فى تاريخها.

---

(١) المصدر السابق.

وكان «القرآن» أعظم كتاب أحدث فى تاريخ العرب
التحولات الفكرية والفنية، وفى رأيى أن «القرآن» هو
غير التقاليد الجمالية للأدب العربى، وأرسى تقاليد
الية جديدة» وأشاع «حساسية فنية» مختلفة عن
اسية الفنية التى كانت سائدة.

لكن متى ظهرت هذه الحساسية، وما نوعها؟ وكيف
ت؟

عتقد أنها ظهرت فى عصر بنى العباس، ففى هذا العصر
، الأجيال الجديدة التى ولدت وتكونت فى ظلال
لام. قد تأثرت لا شعوريًا بالقيم الفنية والجمالية فى
، الله، تأثرت بالجملة القرآنية وبموسيقاها. وبطريقتها فى
اء والتصوير، والتعبير.

يكن القرآن مجرد كتاب أدب، بل كان، إلى جانب
كتاب فكر ودعوة جديدة، جاءت لتخرج الناس من
ت إلى النور، فامتزج سحر الأداء بروعة الأفكار،
، الروحى الذى يشعه ذلك الجانب الغيبى فى هذا
ب الباهر، وحدث هذا المزيج الجديد الذى أثر تأثيرًا
فى القلوب والعقول والأذواق، وتكونت هذه (التقاليد

الجمالية) الجديدة بعد مضى الزمن الكافى، وظ
«الحساسية الفنية» الجديدة فى عصر بنى العباس. و
هذه الرحلة الزمنية التى قطعتها هذه «الحساسية الف
الجديدة حتى تكونت، حدث تطور كبير فى الوسائل ا
والأفكار والعلاقات، وظهرت على مسرح الحياة الإن
الدولة الإسلامية. ولكن يجب أنْ نذكر أنَّ «الت
الجمالية» تجىء فى النهاية تتويجًا للتطورات المادية والر
والفكرية وطرائق الحياة. ومن هنا تبدأ «الحساسية ال
الجديدة فى تأثيرها، وعملها، حتى تجىء حساسية
أخرى. وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليه

دراسة العصر العباسى

إذا ما وصلنا إلى العصر العباسى، هالنا ذلك التطور
ـ فى الأدب بكل أجناسه.

قد برز ذلك بشكل لافت للنظر فى كتاب الدكتور
ى ضيف حيث خصص لدراسة هذا العصر مجلدين
ن يبلغان نحو ١٣٢٦ صفحة، المجلد الأول سماه
ر العباسى الأول»، والمجلد الثانى سماه «العصر
ى الثانى».

ذا مسلك فى الدرس الأدبى سلكه كثير من الباحثين
لدكتور شوقى ضيف، فالأستاذ محمد عاطف صنع هذا
ع فى قسمة العصر العباسى، حيث قسمه إلى طورين
وكذلك فعل محمد نايل المرصفى. وكذلك أحمد
ندرى، وأحمد أمين، أما جرجى زيدان فقد قسم هذا
إلى أربعة أقسام.

أريد أن أناقش فكرة هذا التقسيم، فأنا من الذين

يعترضون - أساسًا - على فكرة تقسيم الأدب العربي
عصور تابعة للعصور السياسية والتاريخية، ثم أن هذه
تناولها قبلى بعض الدارسين، ومن أهم من تناولوها ص
الدكتور شكرى فيصل فى كتابه «مناهج الدراسة الأد
الأدب العربى». ولكن ينبغى أن أقرر فى بداية حديثى
دراسة الدكتور شوقى ضيف لهذا العصر أنها من أ
الدراسات الأدبية لهذا العصر، إن لم أقل أحسنها جميعً
أبرزت مظاهر هذا العصر من النواحى الفكرية وا
والاجتماعية، وحددت ملامحه التاريخية، وأظهرت
السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وأشهد أن الدكتور شوقى ضيف حاول أن يعط
على الرغم من المنهج التاريخى - مذاق العصر و
المختلفة، كما حاول أن يحدد لنا التيارات الفكرية و
والروحية التى ظهرت فى غضون هذا العصر المت
والثقافات الأجنبية من فارسية ويونانية وهندية. كما
أن يقف على مذاهب الشعر الفنية وكذلك مذاهب

عَرَّفَنا بشعراء السياسة والمديح والهجاء على اخ
نزعاتهم الفكرية ومعتقداتهم السياسية، سواء منهم من

العباسيين ورأى أحقيتهم فى الخلافة، كأبى دلامة (نـديم
اح)، ومروان بن أبى حفصة، وسلم الخاسـر، أو من ذاد
عن العلويـين ودافع عن حقهم فى الخـلافـة، كـالسيـد
ـيرى، ومنصـور النمـرى، ودعبـل الخـزاعى، ومحمـد
سالح العلوى، والحمانى، والمفجع البصرى، وحدثنـا عن
الغزل النقى العفيف عنـد أمثال العبـاس بن الأحنف.
حدثنا عن شعراء الزندقة والمجون من أمثال حماد
د، ومطيع بن إياس، وصالح بن عبد القدوس،
ـين بن الضحاك، وأبى الشبل البرجمى. كما حدثنا عن
ء الزهد والتنسك، من أمثال عبد الله بن المبارك،
ـ بن كناسة، ومحمود الوراق، وخالد بن يزيد.
حدثنا عن شعـراء المعتزلـة، كالعتـابى، والنظام، وبشـر
لمعتمـر، ودرس اتجـاهـات التجـديـد عنـد بشـار،
ـواس، وأبى العتـاهيـة، ومسلم بن الـوليـد،وعـلى
ـهم، وابن الرومى وأبى تمام.
وضح ملامح النزعة الشعبية عند الشعراء من أمثال
الشمقمق» و«جحظة البرمكى»، و«الخبزأرزى».
انا صورًا من الزهد المفرط، وصورًا أخرى من المجون
ـلال.

والحق أن هذا العصر الخصب الفنى الجياش، لايز
حاجة إلى كثير من الدراسات الجادة الجديدة، فهذا ا
تلاقت فيه كل اتجاهات المجتمع الجديد. والح
الإسلامية الجديدة. وشهد امتزاج الثقافات الم
وانصهارها فى بوتقة الفكر الإسلامى. كما شهد ا
الأجناس المتعددة فى إطار الإسلام الذى لا يفرق
الناس إلا بالتقوى «يأيها الناس إنّا خلقناكم من
وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إنَّ أكرمك
الله أتقاكم».

كما شهد اصطدام النزعات والعقائد والسياسات،
الثورات المتلاحقة، شهد الضعف والقوة، وشهد
والشر والصلاح والفساد.

ولاشك أن كل هذه العناصر قد أَثَّرَتْ على الناس
عميقًا، أثَّرَتْ فى قلوبهم وعقولهم وأذواقهم، وأثرت
خاصة فى الجيل الجديد الذى نشأ وترعرع وتثقف فى
الإسلام.

* * *

على أننا نستطيع أن نؤكد الآن بعد أن عش

دات الأربعة فى «تاريخ الأدب العربى» لأستاذنا نور شوقى ضيف، أن الأدب العربى قد درس فى هذه ور المختلفة دراسة علمية دقيقة، وأن الحياة العقلية وحية لهذه الأمة، قد وضحت فى هذه الموسوعة وضوحًا ، بل نستطيع أن نزعم أن تاريخ هذه الأمة وحضارتها اتها السياسية، قد درست فى هذه المجلدات الأربعة مفصلا، وعرضت بأسلوب أدبى أخّاذ يغرى بقراءتها، ويمتع من يعيش معها.

يستطيع الشاب الذى لم تتح له الظروف أن يدخل ة، إذا قرأ هذه الموسوعة الرائدة، أن يفقه الأدب بكل أجناسه، وأن يتعرف على تاريخ هذه الأمة ستها وحياتها العقلية والحضارية، وهذه خير شهادة وكتاب.

عتقد أن الدكتور شوقى ضيف، قد حقق حلم روّاد والدراسة الأدبية فى مطلع هذا القرن.

د كان طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الحميد العبادى، ن أن يدرسوا تاريخ هذه الأمة من نواحيها الحضارية ية والأدبية والسياسية فى موسوعة يشتركون فى

تأليفها، يكتب طه حسين التاريخ الأدبى، ويكتب أحمد
تاريخ هذه الأمة الحضارى والعقلى، ويكتب العبادى تا
السياسى. وفى ظلال هذه الشركة الأدبية صدر كتاب
الإسلام لأحمد أمين فى عام ١٩٢٨، وأشار طه حسي
المقدمة التى قدم بها هذا الكتاب إلى هذه الأمنية ق

«وثلاثتنا متضامنون فى هذا الكتاب على اخ
أقسامه، قد استقل أحمد أمين بدرس الحياة العقلية، و
قرأه معنا وأقررناه كما أقره، فنحن شريكاه فيه على
النحو، واستقل عبد الحميد العبادى بدرس الحياة السيا
ولكنه قرأه علينا وأقررناه كما أقره، فنحن شريكاه فيه
هذا النحو، واستقللت بدرس الحياة الأدبية، ولكننا ق
جميعًا، وأقررناه جميعًا، فنحن جميعًا شركاء فيه على
النحو»[1].

ولم يخرج من هذه الموسوعة إلا الجزء الخاص بالمر
أحمد أمين، فقد أصدر بعد كتاب «فجر الإسلام» عدة
أخرى فى دراسة الحياة العقلية، منها «ضحَى الإسلا
ثلاثة مجلدات. و «ظُهْر الإسلام».

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام - الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٣.

لهذا اعتبر موسوعة الأستاذ الدكتور شوقى ضيف - «تاريخ الأدب العربى» بالأجزاء الأربعة التى صدرت حتى الآن - تحقيقا لهذا المنهج الذى وضعه هؤلاء د الثلاثة، فى الثلث الأول من القرن العشرين، وقد اع الدكتور شوقى ضيف - وحده - أن يؤرخ للحياة ة والحياة العقلية والحياة السياسية. وإذا كنت قد ت معه فى بعض مواطن هذه الموسوعة، فقد كان ا حول المنهج التاريخى، وليس خلافا على القيمة ة والأدبية لهذه المجلدات الأربعة الخصبة الثرية - وأتمنى أن ينجز الباحث بقية هذا التاريخ حتى به إلى بداية العصر الحديث، وبذلك يكون قد درس ، العربى منذ العصر الجاهلى حتى اليوم.

ىء واحد وهام أريد أن آخذه على هذين المجلدين ين «العصر العباسى الأول» و «العصر العباسى »، وهو أن المؤلف قد تابع كل الذين أرخوا للعصر ى واعتبروه ذروة التطور الحضارى والتوسع العمرانى الاقتصادى والرفاهية، وعللوا تطور الأدب والفكر نوء تلك التطورات المادية. وهذه المقدمات صحيحة

إلى حد كبير، ولكن ربط الأدب والفكر بها هو المحتا
معاودة نظر.

وكنت أنتظر من باحث كالدكتور شوقى ضيف -
من هو - عمق، ثقافة، ورهافة حس، وقدرة على ال
والاستيعاب، والابتكار، أن يعيد النظر فى دراسة ا
العباسى على ضوء خبراتنا الثقافية المعاصرة.

ولهذا فالمأخذ الذى سآخذه على دراسة الدكتور
ضيف للعصر العباسى، موجه إلى كل الدارسين،
نهجوا وينهجون هذا المنهج.

ولقد أشرت فى المقالة الماضية إلى أن العصر الع
شهد ظهور (تقاليد جمالية جديدة) و (حساسية
جديدة) كانت هى الأساس الذى يمكن أن نعلل على
كل التطورات الفكرية والفنية والأدبية.

ولكن يجب أن نقرر - أيضًا - أن هذه الحساسية
وتلك التقاليد الجمالية لم تنشأ بصورة فجائية فى ا
العباسى، ولكنها نشأت بعد تطورات حضارية واج
كبيرة لحقت بنية المجتمع العربى والدولة الإسلامي
مشرق الإسلام. ونحن نعرف أن التقاليد الجماليـة لأد

.اب لا تنفصل عن تطوره الفكرى والروحى والمادى.
ولكن هذه التقاليد تنشأ بعد أن يكون المجتمع قد وصل
ذروة نضجه المادى والاجتماعى والسياسى، وهذا التطور
ذ وقتًا طويلًا من الزمان تظهر بعده التقاليد الجمالية،
تضعف هذه التقاليد أو تندثر بمجرد ضعف المجتمع أو
لال سياسته وتدهوره ماديًا وسياسيًا، بل تظل وقتًا
بلًا حتى يحدث تطور جديد يغير بنية المجتمع المادية، ثم
ى وقت كاف، لتظهر تقاليد جمالية جديدة.

وأعتقد أن التقاليد الجمالية الجديدة التى ظهرت فى هذا
سر لم تكن نتيجة التطور المادى والفكرى والاجتماعى
سياسى الذى برز بشكل لافت للنظر، فهذا التطور
، كان نتيجة التغيرات الحضارية والروحية التى لحقت
تمع العربى بعد مشرق الدعوة الإسلامية، والتى ظلت
ى عملها فى الحياة والعقول والقلوب والأذواق، حتى
ت إلى ذروتها فى العصر العباسى، ومن ثم تغيرت
ليد الجمالية للأدب العربى، وتكونت تقاليد جمالية
دة، ونشأت حساسية فنية تختلف عن الحساسية الفنية
لازمت الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى بداية

العصر العباسى، وليس من شك فى أن الإسلام هو
أنشأ هذه التقاليد الجمالية، وأن القرآن هو الذى كون
الحساسية الفنية الجديدة.

فلولا ظهور الإسلام لما ظهرت تلك التقاليد الجمالية
هذا النحو، وفى هذا الوقت. وقد طرقت هذا الموضو
بحث ألقيته فى مؤتمر الأدباء العرب بالجزائر فى عام ٥
عن (ثورة التراث العربى) وتبين لى أن تاريخ ال
والمسلمين تحول - منذ مشرق الإسلام - إلى ثور
الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع، ثورة غيرت أ
الناس وعقولهم ومشاعرهم وطرائق تفكيرهم ثورة ن
إلى ضمائرهم فصاغتها، وجعلت لأصحابها طريقة جدي
تصور الأشياء، وفى الإحساس بها، وفى طريقة التعبير
فقد دعا الإسلام إلى الإيمان بإله واحد، فرد صَمد
محدود، له المثل الأعلى فى السماوات والأرض. ودعا المس
إلى العدل الإنسانى بكل صوره وأبعاده، عدل فى الس
والاجتماع والاقتصاد. ودعا إلى التحرر الفكرى فى
مجالات الحياة. ونزل القرآن على نبى الإسلام، وهو
بلغ ذروة الفصاحة، وتحدى العرب أرباب اللسَّن والبلا

يأتوا بمثله فعجزوا، وطور الإسلام الحياة بجانبيه
يبى» و «العملى».

نالجانب الغيبى فى الدين: هو الإيمان بالله وملائكته
ه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

الجانب العملى فى الإسلام: هو صياغة هذا العالم
رى كله صياغة جديدة، وإرساء مؤسساته الثقافية
ياسية والاجتماعية والاقتصادية.

برزت إلى الوجود مدرسة جديدة يمكن أن نطلق عليها
رسة المحمدية» التى تلقت عدة تدريبات.

لقت تدريبًا روحيًّا فى مدرسة الوحى عندما كان جبريل
بالقرآن على الرسول العظيم، وتدريبًا عقليًّا فى مدرسة
ة عندما كان رجال هذه المدرسة يتلقون تعاليم الرسول
لونه، ويستفسرون منه عن كل شىء.

تدريبًا اجتماعيًّا فى مدرسة الحياة، فقد صبر هؤلاء
ال وصابروا وهم يبشرون بالدين، وتحملوا من الآلام
ضطهاد والتعذيب ما تحملوا فى سبيل عقيدتهم. وهذه
سة هى التى قادت التحول الروحى والفكرى
جتماعى، وغيرت خارطة العالم، فقد انتشر الإسلام فى

أنحاء الدنيا، وبدأت هذه المدرسة الجديدة تحكم و
الحياة، وكونت تراثًا كبيرًا فى أساليب الحكم والس
والأخلاق والاجتماع، وبدأت تصطرع مع الحياة والمجتم
عمليات تغيير مستمرة دائمة، وبدأ رجال هذه المد
يواجهون تحديات مختلفة نشأت بحكم ظروف كثيرة، فب
يجتهدون فى السياسة والحكم. ويجتهدون فى تفسير ال
والقرآن، وبدءوا يواجهون عمليات المزج والانصهار
راحت تعمل عملها فى العقول والنفوس بعد أن دخلت
الإسلام عناصر من أجناس متعددة وديانات مختلفة وأ
اجتماعية متباينة، وثقافات متنوعة. وانصهرت كل
العناصر فى بوتقة الإسلام، فاعتنى الفكر الإسلا
وتطورت الحياة الاجتماعية وتعقدت، ونشأت نظم ج
وأفكار جديدة بفضل هذا الامتزاج وهذا الانصهار
التلاقح العجيب. ونشأت الأحزاب السياسية ون
المدارس الفكرية، وتلاطمت النزعات والأفكار والأحز
ووقعت الحروب والفتن والمنازعات نتيجة هذا الت
والإيمان.

هذه التحولات والتغيرات الحضارية استغرقت
طويلاً حتى وصلت ذروتها فى مطلع العصر العبا

حدثت هذا التغيير الجديد الذى أشرنا إليه، وكان القرآن الدستور الذى يهيمن على كل هذه التحولات.. كانوا سون عنده التفسير لكل مظاهر التحول الجديد، وكانوا ون فيه المتاع العقلى والروحى، وكان نسقًا جماليًّا ارتفع هبهم، وحفزهم على السمو على واقعهم الأدبى كرى، تأملوه طويلاً، وأمعنوا النظر فى تراكيبه وجمله، حرتهم فواصله وموسيقاه، وأداموا التفكير فى أسرار ازه.

وعندما نشأ جيل جديد فى ظلال هذه التغيرات حولات، ظهرت التقاليد الجمالية الجديدة والحساسية ية، وكان ذلك فى مطلع العصر العباسى، ولهذا أرى أن ب الإسلامى من الناحية الفنية والجمالية هو الذى ظهر العصر العباسى بكل ألوانه. وهذا حديث يحتاج إلى سات متعمقة مفصلة سأقوم بها فى غير هذا المكان.

وتكفى هذه الإشارة لأقرر أن الذين يربطون الأدب فى صر العباسى بما وقع فيه من أحداث تاريخية وسياسية كبون خطأ كبيرًا، ويتجاهلون جذور الأشياء، وأصول ائل.

شوقى ضيف ومذاهب الأدب العربى*

(١)

ونعود مرة أخرى إلى ما بدأنا به هذه السلسلة من الدراسات عن الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، لنفصل القول فى الإنجاز الرائع الذى قدمه فى مطلع حياته العلمية والأدبية.

فقد بدأ الرجل مسيرته العلمية بمحاولة جادة عميقة لتأصيل مذاهب فنية للأدب العربى، وتتمثل هذه المحاولة فى عدة كتب من كتبه أهمها فى نظرى:

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
(الطبعة الأولى - أبريل ١٩٤٣).
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
(الطبعة الأولى - أبريل ١٩٤٦).
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
(الطبعة الأولى - يناير ١٩٥٢).

---

* المقال السادس (العدد ٧٨ من الثقافة مارس ١٩٨٠).

هذه الكتب الثلاثة وغيرها من كتب شوقى ضيف، كان
بطها خيط واضح، ويجمعها هدف موحد، هو محاولة
أصيل النظرى، وإرساء أسس مذاهب فنية للأدب
ربى.

وهذه رسالة اضطلع بها الجيل الثانى من النقاد
دارسين، الذى جاء بعد جيل الرواد، الذى حمل أعباء
ث والتجديد، ورفد الثقافة العربية بتيارات الفكر
نسانى، ولم يلتفت بصورة واضحة - فى معظم الأحيان -
تأصيل تلك المذاهب وتحديد مسارها واتجاهاتها، كما فعل
الجيل الثانى، الذى يعتبر شوقى ضيف من أهم أعلامه
زهم.

ولقد أشرت فى الفصل الأول من هذه الدراسات إلى أن
كتور شوقى ضيف قد اهتدى إلى ثلاثة مذاهب فنية،
ى الأدب العربى : شعره ونثره فى إطارها. وهذه المذاهب
:

* مذهب الصنعة.
* مذهب التصنيع.
* مذهب التصنع.

وربما لا تكون هذه التسميات ذات إغراء جمالى، لق
العقد الثامن من هذا القرن، الذى لا تربطه وشائج
بحضارتنا العربية وتراثنا الأدبى، ولكنها على أية
أصبحت مصطلحات فنية على هذه المذاهب، ولا مشاح
الاصطلاح كما يقال.

المهم أن الدكتور شوقى ضيف، حاول منذ هذا الو
المبكر من حياته العلمية أن يبحث لأدبنا العربى عن تق
جمالية، يدرسه من خلالها، ويتذوق نصوصه على ضو
وهى فكرة عميقة مركبة تحتاج إلى ثقافة عميقة متنو
ومعرفة دقيقة بالتراث العربى، وإلمام واسع بتيارات الأ
واتجاهاته ومذاهبه، وحاسة فنية مرهفة متيقظة، وعقل ناض
وقدرة على الابتكار ودراية واسعة بأساليب العرض الم
الجذاب.

وقد جمع الدكتور شوقى ضيف كل هذه الخصائ
والمميزات، إلى جانب سجاياه الشخصية وعاداته المعر
وانقطاعه التام للعلم والدرس والكتابة، بعيدًا عن
المغريات والاتصالات، أو التأثر بالمواضعات الاجتما
التى تشغل الناس، وتستنفد طاقاتهم وأوقاتهم. ولعل هذ
السبب - أيضًا - فى غزارة إنتاجه وتنوعه وعمقه

المهم أن هذه التقاليد الجمالية التى أرساها الدكتور
قى ضيف، وحددها، وضبط مصطلحاتها، لاتزال صالحة
اليوم لدراسة الأدب من خلالها. ولاتزال قادرة على
لهام والتأثير، ودفع أجيال أخرى إلى ارتياد آفاق جديدة
ويرها والبناء عليها.

وفكرة التقاليد الجمالية استقرت عند الدكتور شوقى،
أن رفض الأفكار الشائعة والمصطلحات السائدة فى
ـ العربى القديم، والتى كانت تقسم الشعراء إلى قسمين،
يطلقون عليه أصحاب الطبع، وقسم ثان يطلقون عليه
حاب الصنعة. فالشعر - كما يقول - «متأثر بجهد
ر وموروث أكثر من تأثره بما يسميه نقادنا باسم الطبع.
هناك شعر لا يعمد فيه صاحبه إلى بعض تقاليد فى
يبه وموضوعاته ومعانيه؟ إن من يرجع إلى العصر
لى يجد الشعر خاضعًا لتقاليد ورسوم كثيرة، يتوارثها
راء، سواء فى ألفاظه ومعانيه، أو فى أوزانه وقوافيه،
ث لا يستطيع مطلقًا أن يذعن لفكرة الطبع وما يطوى
من أن الشعر فطرة وإلهام، فقد كان الجاهليون
ون شعرهم صناعة، ويعملونه عملا، وهم فى أثناء هذه

الصناعة والعمل يخضعون لمصطلحات ورسوم كثيرة

والدكتور شوقى لا ينكر أن الشعر فى الأصل المو
ولكنه يؤكد أن هذه الموهبة «لا تلبث أن تتحول
صاحبها إلى ممارسة ودراسة طويلة لتقاليد ومصطلح
موروثة فى تاريخ الفن، وهو يتقيد بهذه التق
والمصطلحات فيما يصنعه ويعمله تقيدًا شديدًا، وكان الـ
القدماء أنفسهم يسمون شعرهم صناعة، ويصفونه بأوص
الصناعات، وكذلك كان الشأن عند اليونان وعند
الحديثة جميعًا، ومن أجل ذلك كان النقاد فى الأمم الغ
يقرنون الشعر إلى النحت والتصوير والرقص والموس
فمثله مثل هذه الأعمال الفنية، يقوم على جهد وكدح»[٢]

ويرى أن الشعراء - حتى فى العصر الجاهلى -
أصحاب صنعة، وكانوا يقبلون على شعرهم إقبال الـ
على حرفته، يوفون لعملهم الرسوم والتقاليد. ويقول «
يرجع إلى نماذج امرئ القيس، وهو من أقدم الش
الجاهليين، يلاحظ أنه يعنى بالتصوير فى شعره، كأن التص

(١) الدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٧
العاشرة، دار المعارف ١٩٧٨).

(٢) المصدر السابق والصفحة.

ة فى نفسه، فالأفكار تتلاحق فى صفوف من التشبيهات،
تستتم هذا الفن من التصوير، وكأنما القصائد برود
ة، ففيها ألوان ونقوش ورسوم على صور وأشكال
ة، وغير امرئ القيس من الجاهليين مثله يعنى بالتصوير
شعره عناية بالغة، كأنه أصل مهم من أصول
عتهم»[1].

وتشتمل هذه التقاليد الجمالية أيضًا على عدة أصول، منها
صل بالموسيقى، «فالقصيدة تتألف من وحدات موسيقية
ونها الأبيات، وهى تبلغ عادة أربعين بيتًا، وقد تزيد إلى
وقد تنقص إلى عشرة. ويلتزم الشاعر فى جميع هذه
ات وزنًا واحدًا يرتبط بنغماته وألحانه فى النموذج الفنى
كما يلتزم حرفًا واحدًا يتحد فى نهاية هذه الأبيات
ى الرَّوِىّ»[2].

بعض هذه التقاليد - كما أشار شوقى ضيف - يتصل
سول الصوتية والبعض الآخر يتصل بالتصوير.

يحاول الدكتور ضيف أن يمتحن بعض قصائد من الشعر
لى على ضوء هذه التقاليد الجمالية، فيقف عند مُعَلّقة

) المصدر السابق ص ١٥. (٢) المصدر السابق ص ١٤.

امرئ القيس، ويذكر منها أبياتًا من قوله:

وقد أغتدى والطير فى وكناتها
بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل
مِكَرٍّ مُقْبلٍ مُقْبلٍ مُدبرٍ معًا
كجلمودِ صَخْر حَطَّهُ السَّيْلُ مِن ع

إلى قوله:

كأنَّ دماءَ الهاديات بنَحْرِهِ
عصارة حنّاء بشيب مُرَجَّ

ويرى أن التشبيهات قد تراكمت فى هذا الو
«وظهر فيها ضرب من التركيز والإيجاز، وارجع إلى قول
البيت الأول «قيد الأوابد»، فقد كان القدماء يعجبون
الكلمة إذ عبرت فى إيجاز بالغ عن سرعة الفرس وجِدّ
الجرى والنشاط، فهو قيد الأوابد، كلما أرادها قيدها
تستطع إفلاتًا منه ولا فرارًا. وهذا الإيجاز البالغ يدل
مجهود عنيف كان يقوم به امرؤ القيس حتى ينفى عن ش
كل إطناب فيه»[1].

ويتابع تحليل أبيات امرئ القيس ويلمح قدرته

(١) المصدر السابق ص ١٦.

شبيه الدقيق، مثل تشبيه خاصرة الفرس بخاصرة الظبى، قه بساق النعامة، وفى وصف سرعة عَدْوِه وانطلاقه ئب والثعلب فى الوثب السريع، ثم يقول عنه إنه مكتنز ن كالحجر يُسَحق عليه الطيب، أو كالحنظلة فى ملاستها يقها، وقد امتزجت دماء الصيد على صدره كأنها الحناء ج بالشيب»[1].

ويحدثنا الدكتور شوقى ضيف أن «هذه الكثرة الغامرة الصور والخيالات التى أحكمها امرؤ القيس فى يره... تدل على أن الشاعر الجاهلى كان يستخدم من إلى حين بعض المحسنات المعنوية واللفظية التى عرفت لعصر العباسى، وأكثر الشعراء من استخدامها... ولعل لك ما يدل على أن الفكرة التى تعودنا أن نفهم بها ر القديم، والتى تذهب إلى أنه خالٍ من الصنعة فكرة صحيحة، فإن هذا الشعر ينزع به صاحبه إلى ضرب الجمال فى التعبير، إذ يملؤه بالصور والتشبيهات، ويطلب بعجب به الناس من حوله، وأن يقع منهم موقعًا حسنًا، ع الثياب الملونة أو الثياب اليمنية المنمقة»[2].

---

١) المصدر السابق ص ١٧. (٢) المصدر السابق والصفحة.

ويلتقط الدكتور شوقى ضيف هذا الخيط لينسج منه
ذلك مذاهب فنية للأدب العربى على امتداد عصو

فهذه التقاليد الجمالية فى مطالع الشعر الجاهلى هى
المذاهب الأدبية وقد أطلق عليها «مذهب الصنعة»،
كان الشاعر الجاهلى «يخضع لتقاليد تتناول ما يقوله و
يقوله، تتناول ما ينظم فيه والطريقة التى ينظمه بها، وبـ
أخرى تتناول الموضوعات التى يعالجها وما يتخذه فيه
طرق فنية فى التعبير والموسيقى والتصوير»[1].

ويرى الباحث أن هذه التقاليد بدأت بسيطة، ثم أخ
تتعقد شيئًا فشيئًا فى كل مذهب من المذاهب.

فشعراء مذهب الصنعة مثلا بدأت الصنعة فى
بعضهم تأخذ شكلاً بسيطًا ثم أخذت تتعقد فى شعر الب
الآخر، وتأخذ شكل مهارات فنية ومعاودات ومراج
«فكعب، وجرول - أى الحُطَيئة - ينتخلان شعر
ويآخذانه بالثقاف والتنقيح ويجمعان له كل ما يمكن
وسائل التجديد والتحبير، وكذلك كان يصنع صنـ
الشماخ ومزرد»[2].

(١) المصدر السابق ص ١٩. (٢) المصدر السابق ص

لما تجمعت لها عدة تقاليد جمالية ونضجت وتعقدت
ت شكل المدرسة رائدها وممثلها زهير بن أبي سلمى
حب الحوليات، فقد كان يأخذ شعره بالثقاف والتنقيح
قل، وكأنه يفحص ويمتحن ويجرب كل قطعة من قطع
جه، فهو يعني بتحضير مواده، وهو يتعب في هذا
ضير تعبًا شديدًا»[1].

يحدثنا الدكتور شوقي ضيف عن هذه المدرسة بقوله:
وإذن فنحن أمام مدرسة في الشعر أستاذها زهير،
ميذها جماعة، تارة يكونون من أهل بيته، وتارة
كونون. وهي مدرسة (كانت تعتمد على الأناة والروية،
م الطبع والاندفاع في قول الشعر مع السجية، فكثر
ا التشبيه والمجاز والاستعارة، واتكأت في وصفها على
وير المادي، وأن يأخذ الشاعر نفسه بالتجويد والتصفية
قيح ثم التأليف»[2].

لهذه المدرسة نماذج كثيرة تقفنا على قيمها الجمالية
ئقها التعبيرية، وقد وقف الدكتور شوقي ضيف عند
رأس هذه المدرسة، فتناول نماذج من شعره موضحًا
ه في الصنعة.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥.
(٢) المصدر السابق والصفحة.

شوقى ضيف ومذاهب الأدب العربى*

(٢)

زعيم مذهب الصنعة فى نظر الدكتور شوقى ضيف، زهير بن أبى سلمى. فهو على حد تعبيره يعرف سر م «إنه يعرف كيف يصور الحوادث الماضية، فإذا هى تمر أبصارنا وكأننا نشاهدها، وهو لا يبتغى ذلك من تشبي متراكمة، إنما يبتغيه فى طبيعة التعبير نفسه، فيعبر بال المضارع حتى يجعلنا نتمثل حوادثه الماضية، وهو لا يك بالتفصيل ولا باستعمال العبارات التى تجعل الأشياء منظورة، بل هو يضيف التدبيج، أى لون موصوفاته تصويره، حتى يأخذ الشكل ويستتم الوصف»[1]. وقد بهذه التقاليد الجمالية التى أرساها زهير وأضرابه ال الغنائى الخالص الذى كان يصحب بالعزف والضرب الأدوات الموسيقية، من العصر الجاهلى إلى العصر العبا

(١) الدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٧٠ المعارف الطبعة العاشرة ١٩٧٨).

وتتبع تطور مذهب الصنعة عبر العصر الجاهلى وصدر سلام والعصر الأموى. ثم واصل رصد ازدهار هذا هب وتعقده فى العصر العباسى فى شعر بشار، ، نواس، وأبى العتاهية، مع ملاحظة دقيقة للتطورات ضارية التى لحقت بالحياة فى هذا العصر وتغير الذوق م. والمستوى الذى يعيش فيه الخلفاء والقواد والأمراء. فقد كانت بيوت هؤلاء «تكتظ بالستور والبسط المعلقة الحوائط والنوافذ، متنافسة بألوانها الزاهية، وما عليها التصاوير المذهبة، وكانت الحيطان والسقوف والأبواب ب وتفضّض، كما كانت الغرف والأبهاء تزدان بالأثاث يس والفرش الأنيقة»[1].

ويحدثنا الدكتور ضيف أن الشعراء لم يكونوا بعيدين ن هذا الجو من التصنيع والزخرفة والزينة، فقد كانوا مون الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة، ويختلطون ارى والإماء. وانصبّ فى حجورهم كثير من الأموال جعلتهم يعيشون فى ترف ونعيم بالغ، بل يحققون كل ريدون من تصنيع وتنميق فى حياتهم»[2].

١) المصدر السابق ص ١٧٢.
٢) المصدر السابق ص ١٧٣.

فلا عجب أن يتسرب هذا التصنيع والتنميق من حيا
الخاصة إلى شعرهم وفنهم «وهى حال طبيعية، توجد دائ
الصنائع حين يعم الترف، فإذا هى تتحول إلى زخا
دقيقة، وليس الشعر وحده الذى أخذ يسود فيه
التصنيع، فقد كان يشيع فى فن العمارة، وبناء المسا
والقصور، كما يشيع فى التصوير الذى كان يستخدم
وزخرفاً للكتب والقصص»[1] ونما هذا التنميق والتصنيع
الزمن وأثر فى الشعر والشعراء فأصبحت القصيدة «ك
واجهة لمسجد مزخرف بديع، قد تألق فى وَشْى مر
كثير»[2]. وبذلك ظهر مذهب جديد فى رأى الدكتور شو
هو «مذهب التصنيع».

خصائص مذهب التصنيع:

وقد كان مسلم بن الوليد من أوائل الذين أدخلوا
المذهب إلى الشعر العربى، فهو يعتمد فى صياغة شعره «
النحت وقوة البناء، كما يعتمد على الزخرف والتصنيع
يصبغ هذا الديباج أو النسيج المتين بالألوان والأطياف،

(١) المصدر السابق ص ١٧٤.
(٢) المصدر السابق والصفحة.
(٣) المصدر السابق ص ١٨٤.

وأهم شاعر يمثل مذهب التصنيع - فى رأى الدكتور
قى ضيف - هو أبو تمام، فقد انتهى المذهب عنده إلى
اية التى كان يرنو إليها شعراء العصر العباسى من
خرف والتنميق، وكأن الشعر «أصبح تنميقًا وزخرفًا
لصًا. فكل بيت فى القصيدة، إنما هو وحدة من وحدات
ا التنميق والزخرف، وهو ليس زخرفًا لفظيًّا فحسب، بل
زخرف لفظى ومعنوى، يروعنا فيه ظاهره وباطنه، وما
عه من خفيات المعانى وبراعة اللفظ»[1].

وقد حدثنا عن تصوير أبى تمام وتجسيده للمعانى،
ويره المتحرك المشخص، واستخدامه لألوان جديدة من
سنيع يبتهج بها العقل «وهى ألوان قاتمة كانت تتسرب
من الفلسفة والثقافة العميقة... فقد استطاع أن
وعب الفلسفة والثقافة، وأن يحولها إلى فن وشعر، إذ
ى بهما ألوان التصنيع السابقة. أو بعبارة أدق يتعلقان هما
، الألوان، فإذا كل لون منها يعبر عن فكر عميق ،
باق والجناس والتصوير والمشاكلة كل ذلك يزدوج
سفة وألوان الثقافة القاتمة، فيجلله الغموض فى كثير

---

١) المصدر السابق ص ٢٢٣.

من جوانبه وأجزائه، ولكن أى غموض ؟ إنه الغموض ا
الذى يشبه تنفس الفجر، فالأفكار والصور وكل ما ي
عليه أبو تمام من ألوان يلتف فى ثياب من هذا الغموض
فى ألوان قاتمة من هذه الظلال التى لا تحجب النور، و
ترسله بقدر، فيضفى على كل ما يمسه حسنًا وجمالاً

فإذا تعقدت الحياة وضعفت الدولة العباسية وك
الألقاب عقمت الأفكار والفنون، وتحول الشعر إلى
آخر سماه الدكتور شوقى ضيف «مذهب التصنع»، وا
إلى التلفيق فى خواطره وصنع عباراته وأساليبه، وي
الدكتور ضيف «مهيارًا الديلمى» مثالا لهذا الجانب، أو
المذهب.

ويضع الدكتور شوقى ضيف فى هذا المذهب شعراء
أكبر شعراء العربية من أمثال المتنبى، والشريف الر
والمعرى.

هذه المذاهب الثلاثة التى اصطنعها الدكتور ش
ضيف لدراسة الشعر العربى، أطلنا فى نقل فقرات عنها
كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، «ليقف القارئ

(١) المصدر ٢٣٩.

رة هذه المذاهب كما صاغها صاحبها، وهى تسميات
ال تحمل إشعاعات جمالية عميقة، وإن كنا نختلف مع
ث الفاضل فى بعض التطبيقات، وبعض النماذج، ففى
أن المتنبى والمعرى يستعصى شعرهما على أن نصنفه
سماه الدكتور ضيف «مذهب التصنع»[1].

ربما ذهبت إلى أبعد من هذا وقلت: إن شعرهما
صى على أن يصنف فى هذه المذاهب الثلاثة كلها.

عيب آخر فى هذه المذاهب، وهو انعدام الحدود الفاصلة
بشكل قاطع، والأصل فى المذهب أن تكون له حدود
حة تميزه عن المذاهب الأخرى، وتمنع تسرب أفكار
ب الأخرى إليه، فإذا انهارت هذه الحدود الواضحة
لت المذاهب وتشابكت، وهذا ما نلمحه فى بعض أجزاء
ب.

لى أية حال استطاع الباحث الرائد أن يدرس الشعر
، فى مختلف عصوره من خلال نظرية فنية قامت على
، هذه المذاهب التى صك مصطلحاتها من جديد فى
التراث النقدى العربى على امتداد عصوره، مع حس

المصدر والصفحة.

فنى مرهف، وقدرة على التذوق والتحليل والتعليل، وإ
عميق للتطورات الحضارية التى لحقت ببنية المجتمع الع
والتى كانت تؤثر على الفنون والآداب. ولم يقتصر الد
شوقى ضيف على تطبيق هذه المذاهب على الشعر، بل
مجال تطبيقها إلى النثر.

وفى كتابه (الفن ومذاهبه فى النثر العربى) تتبع
المذاهب الثلاثة وطبقها على الخطابة والكتابة الفنية
تشتمل عليه من قصص مكتوب، ورسائل أدبية
ووضع أعلام هذه الفنون فى إطار هذه المذاهب، فوقف
الصنعة فى الكتابة الأموية، وقدم لنا عبد الحميد الـ
وخصائص كتابته الفنية.

ودرس النثر العباسى وتناول الصنعة عند ابن
وسهل ابن هارون، والصنعة الجاحظية. ثم تناول الـ
عند ابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبى إسحاق الـ

ثم تناول بديع الزمان وتصنعه، والحريرى وتعقي
وأفرد الجزء الثالث للمذاهب الفنية فى الأندلس و
وبذلك وضع الأسس العامة لمعاودة دراسة هذا الن
خلال تصور متكامل ونظرية فنية جديدة تقربه إلى
العصر.

على أن الدكتور ضيف لم يكتف بصياغة هذه الأسس
رية للمذاهب الأدبية التى صكها وحدد مدلولاتها
نها على الأدب العربى شعره ونثره، ولكنه عاد مرة ثانية
الأدب العربى من خلال نظرات جديدة، يلمح فيها
آخر يرتبط بالتطور والتجديد.

نظرات جديدة فى الدرس الأدبى

كان من الممكن أن يستكين الأستاذ الدكتور ش
ضيف إلى الإنجاز الرائع الذى قدمه للدرس الأدبى، و
تمثل فى دراسة الأدب العربى على ضوء مذاهب أدبية،
كفاحًا مضنيًا فى سبيل تأصيلها، وتحديد ملامحها،
مصطلحاتها، وتفسير معالمها، ولكن طاقاته العقلية وق
المعرفية، وذوقه المشحوذ، دفعته إلى ارتياد آفاق جدي
مجال الدرس الأدبى، وإرساء مجموعة أخرى من الن
النقدية، وإلقاء نظرات جديدة على ميادين من ال
الأدبى كانت مستقرة.

وللباحث الفاضل غرام مشتعل بهز المسلمات الر
والنظرات الثابتة فى مجال النقد والدراسة الأدبية.

والناظر فى كتابيه «التطور والتجديد فى الشعر الأم
الذى صدرت طبعته الأولى فى يناير ١٩٥٢ و «ا

وابعه الشعبية على مر العصور» الذى صدر فى عام ١٩٧ ، يدرك على وجه اليقين، هذا المسلك العلمى جدد.

ويستوى عند الباحث أن توافقه على آرائه، أو تخالفه، ر معنى بالبحث والتمحيص، والتعميق، والاكتشاف تجديد، دون التنكر للدراسات التى سبقته أو التهوين من نها، وقد حماه هذا المسلك العلمى الرفيع والمترفع، من خول فى خصومات ومجادلات حول الدرس الأدبى يفيد منها، وحصر كل خلافاته ومناقشاته حول القضايا دة التى يقتنع بأنها ستضيف جديدًا إلى تصوراته، أو ضىء له جانبًا جديدًا لم يلتفت إليه.

وتلك طبيعة العلماء الذين يصلون إلى نتائجهم بعد ب طويل، وإحاطة شاملة، وفحص دقيق لكل الجوانب، ا يصعب أن يغيروا آراءهم بسهولة، أو يتنازلوا عن ج بحوثهم بسرعة.

وفكرة كتاب «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» كان ن منها الوقوف فى وجه تيار كبير ساد الدراسات بية، وقرر عدة أحكام تناقلها الخلف عن السلف دون

نظر أو تمحيص، ومن هذه الأحكام أن الشعر العربى
عصر بنى أمية كان قريب الشبه بالشعر فى العصر الجاه
وأن العرب قد «استمروا ينظمون شعرهم بعد الفت
الإسلامية ونزولهم فى الأوطان والأقاليم الجديدة خا
الجزيرة، على شاكلة ما كان ينظمه أسلافهم، حتى أرسل
لهم الموالى فى العصر العباسى، فطوروا لهم صورة شعر
وجددوا فى إطارها وخطوطها وألوانها فنونًا مختلفة
التجديد»[1].

هاجم الدكتور ضيف هذا الرأى هجومًا عنيفًا وقال
مقدمة الطبعة الأولى من الكتاب: «ولا يعرف تاريخ الن
العربى حكمًا جائرًا على حقائقه الأدبية مثل هذا الح
الذى جعل العرب أحجارًا ينقلون من مكان إلى مك
ومن عصر إلى عصر، ومن طور بداوة إلى طور حضارة،
أن يتأثروا بما يصادفهم فى كل ذلك من مؤثرات حض
وغير حضارية»[2] وانتهى إلى أن العرب كغيرهم من ا
يتأثرون ويتطورون ويتفاعلون مع الأحداث «وشتان

---

(١) الدكتور شوقى ضيف: التطور والتجديد فى الشعر الأموى
(الطبعة السادسة دار المعارف سنة ١٩٧٧).

(٢) المصدر السابق والصفحة.

ـبى الصحراء القديم، وعربى العصر الأموى الذى ورث
سرى وقيصر، وخرج من صحرائه ونزل فى الشام والعراق
يرهما من الأقاليم الإسلامية»[1].

ولكى يثبت الدكتور شوقى ضيف هذا الحكم، درس
سورة مفصلة دقيقة بيئات الشعر الأموى بعد أن مهد لها
لحديث عن الإسلام وأثره فى الشعر، وملامح الشعر فى
صر الرسول، والشعر فى عصر الخلفاء الراشدين.

والبيئات التى تنفس فيها الشعر فى عصر بنى أمية هى
لحجاز ونجد والعراق والشام واليمن ومصر وبلاد المغرب
لأندلس». هذا الإطار المكانى درسه دراسة عميقة،
حص مكوناته الجغرافية وما اصطلح عليه من أحداث،
رف على ما احتدم فيه من تيارات حضارية.

ودرس بعد ذلك تطور هذا الشعر مع تطور الحياة
دينية، والحياة العقلية، والحياة السياسية، والحياة
جتماعية والحياة الاقتصادية. ولمح بعد هذا الفحص
أنى، التجديد فى المدح والهجاء، فوقف عند تحول الهجاء
نقائض عند الأخطل والفرزدق وجرير.

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

وتعرف على ألوان جديدة من الشعر عند عمر
أبى ربيعة فى غزله غير المألوف الذى «يصور فيه ع
المرأة له»[1].

وعند «ذى الرمة» الذى قدم لوحات وصفية را
استخدم فيها قدرته على التشخيص والتجسيم والح
والتركيز.

وحدثنا عن التجديد عند «الكميت» فى الشعر الفك
الذى يدافع عن عقيدته وأفكاره، وكان الكميت زي
فدافع عن نظرية زيد بن على الشيعية، كما وقف
خمريات «الوليد بن يزيد»، وعند أراجيز رؤبة، كما أشار
أثر البيئات الجديدة فى الشعر الأموى أثناء الفت
الإسلامية، فقد نُظِم فيها شعر كثير صَوَّرَ المعالم الجديدة ا
شاهدها العرب أثناء هذه الفتوح، وسجل ما فيها من ثل
ونبات وحيوان. وصور أيضًا كل ما هنالك من رَافِهِ العي
والطعام، وفاخر الفُرش والثياب، كما صوَّرَ الجوا
الأجنبيات اللائى غنمهن العرب فى الحروب»

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٩.
(٢) المصدر السابق ص ٣٣.

شار إلى تيار قوى ظهر فى الشعر الأموى هو تيار الشعر
ى يصور الغربة والحنين إلى الوطن، وخاصة عند
شعراء الذين «فارقوا أوطانهم، وفارقوا عشائرهم، وفارقوا
يهم وأبناءهم، وخرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله»[1].

وقد رصد الدكتور شوقى ضيف - من خلال منهج
مى دقيق - عدة ظواهر حدثت فى العصر الأموى فى
ات الشعر المختلفة، ففى بيئة العراق لاحظ أن الشعر
ربى خاض فى موضوعين كبيرين هما الخصومة السياسية
، اشتعلت بين الخوارج والشيعة، وبين الأمويين،
خصومة القبلية التى كانت بين العدنانيين والقحطانيين، كما
حظ ظهور الغزل العذرى فى نجد وبوادى الحجاز، وقرر
كتور شوقى أن «الحجاز اختصت بنوع من الشعر
نائى الكامل الذى كان يصحب بالعزف والضرب على
دوات الموسيقية».

كل هذه الظواهر والتطورات والاتجاهات درسها
كتور ضيف فى الشعر الأموى، باعتبارها سمات جديدة
ـثها التحول الإسلامى الكبير فى الحياة العربية،

(١) المصدر السابق ص ٣٣١.

وانعكس على الشعر وبقية الفنون، ابتداء من صدر الإسلا
وعصر بنى أمية. ونحن نلاحظ أن الطبعة الأولى من كتا
«التطور والتجديد فى الشعر الأموى» قد اتسمت بالحرا
والحماسة فى عرض قضايا التطور، حتى كانت فى بعض
الأحيان توحى بأن الدكتور شوقى ضيف ينكر أن يكو
الشعر الأموى له أية صلة بالشعر الجاهلى، مع أن هذا
يطف بذهن الدكتور ضيف.

وقد أثار الكتاب فى طبعته الأولى كثيرًا من النقا
والجدل حول النتائج التى توصل إليها الباحث الجليل،
جعله يعقب فى مقدمة الطبعة الثانية على بعض تلك الأصد
ويقرر أنه لم يقصد إلا دراسة جانب التطور والتجديد
الشعر الأموى، ولم ينكر أى صلة بين هذا الشعر و
الشعر الجاهلى، وأكد هذا المعنى فى بداية مقدمته بقول
«ظن بعض من قرءوا هذا الكتاب فى طبعته الأولى أ
أنكر به الصلة بين الشعر الأموى والشعر الجاهلى، وأز
أنها كانت منبتة منقطعة، ولست أدرى من أين جاءهم ه
الظن، وأنا لا أنكر هذه الصلة ولا أدفعها عن الشعر
العصر الأموى، بل أنا لا أنكرها ولا أدفعها عن الش
العربى فى جميع عصوره التالية، فقد ظلت الصلة قائمة من

، عصوره وأقاليمه المختلفة، وبين الجاهلية وحياة العرب
دوية القديمة، فهى تفرض نفسها على الشعر والشعراء،
من حيث الصنيع والأخيلة والصور فحسب، بل أيضا
، حيث الموضوعات والأغراض وذكر الأطلال والرسوم،
صف الإبل وحيوانات الصحراء ومسالكهاومنازلها»[1].

وأعترف أننى أختلف اختلافًا عميقًا مع أستاذنا الدكتور
قى ضيف فى كثير من النتائج التى توصل إليها فى كتابه
ا، لإيمانى الأكيد بفكرة كبيرة كررتها مرارًا فى مناسبات
ة، وأتمنى أن أتفرغ لها وأدرسها بصورة مفصلة، وهى أن
قاليد الجمالية الجديدة التى فجرها الإسلام، لم تظهر فى
عمال الفنية إلا فى العصر العباسى، لأن الحساسية الفنية
لجمالية تحتاج إلى وقت طويل حتى تختمر وتستقر وتنفذ إلى
ار النفس العربية، ويحتضنها جيل جديد يتمثلها فكرًا
ا، وهى لهذا تختلف عن التحولات الحضارية والفكرية
جتماعية الأخرى التى قد تظهر بعد بروز الحدث على
رح الحياة مباشرة، أو بعد وقت قصير.

ومن هنا أختلف مع الدكتور ضيف فى أن الشعر الأموى

(١) المصدر السابق.

تطور تطورًا كبيرًا يختلف عنه فى العصر الجاهلى، لمجرد
تناول بعض الأحداث السياسية أو تناول صراع الفرق،
القبائل، أو صور الحب النقى الصافى، لأن معدن الش
الأموى الذى صور كل هذه الأشياء لا يختلف عن مع
الشعر الجاهلى، فالتقاليد الجمالية واحدة، والحساسية الف
واحدة.

ولم تختلف هذه الحساسية إلا فى العصر العباسى،
نستثنى بعض الروافد الصغيرة من التجديد، التى لا تشكّ
ظاهرة أو انقلابًا، ولا تنفى هذه القاعدة، وهى على كل ح
روافد كانت تظهر فى العصر الجاهلى. ولم تؤثر فى الحسا
الفنية السائدة، ولا فى التقاليد الجمالية الغالبة. وإذا ك
أختلف مع الدكتور شوقى ضيف من هذه الناحية، فإ
أتفق معه فى نفيه أن يكون للموالى هذا الحجم الكبير
التأثير فى الشعر فى العصر العباسى.

على أية حال لا نستطيع أن نتجاهل هذه النظرا
الجديدة فى الدرس الأدبى التى ظل الدكتور شوقى ضي
يرفد بها الدرس الأدبى فى مختلف مراحل حياته.

ولعل كتابه الذى صدر فى عام ١٩٧٧، عن «الش

ابعه الشعبية على مر العصور»، يؤكد أن الرجل ظل
ل حياته مشحوذ الذوق والفكر والوجدان، يقدم
كار الجديدة للدرس الأدبى، ففى هذا الكتاب أكد من
ل الدراسةالتطبيقية، أن الشعر العربى كان يصور حياة
عب العربى فى كل البيئات وعلى امتداد الحقب والأزمان.
ن أن يكون شعراء العربية كانوا بمعزل عن شعوبهم فقد
ا يتغنون بأشعارهم لكل الطبقات.

شوقى ضيف والدرس اللغوى

لا تزال هناك جوانب - لم نتعرض لها بالدرس - شخصية الدكتور شوقى ضيف العلمية من أهمها جان جانب الدرس اللغوى،وجانب الدراسات الإسلامي

وسأتناول - فى هذه المرة - جانب الدرس اللغ

وقد راد الدكتور شوقى ضيف البحوث والدرا اللغوية، منذ وقت مبكر من حياته العلمية الموفورة - عثر على طرفة جديدة فى النحو لعالم أندلسى، هو ابن القرطبى، قاضى القضاة فى دولة الموحدين - هو (ك الرد على النحاة).

هذا الكتاب كان ثورة على نظرية العامل المستقر النحو العربى، فاتخذه الدكتور شوقى ضيف مدخلا لث فى مجال الدراسات اللغوية وحققه، وأصدره فى عام ٤٧ وكتب له مقدمة سماها مدخلا، تبلغ صفحاتها مقدار كتاب ابن مضاء، بين فيها عصر المؤلف وحياته، ووقف

، فى الكتاب فعرف بها تعريفًا دقيقًا.. ثم انتقل بعد ذلك
تحديد آرائه، وبيان حاجة النحو العربى إلى ثورة جديدة
ة ابن مضاء، وقد وضع بذور هذه الثورة فى هذا
فل، وبَيَّنَ كما يقول فى مقدمته «حاجة النحو العربى إلى
ف جديد، يرفع عن الناس ما يفدحهم ويعضلهم فى
ه، ولم ألبث أن رسمت خطة هذا التصنيف مستهديًا
ابن مضاء وأفكاره»[1].

على أن هذه البذور التى بثها الدكتور شوقى فى المدخل
مع الذى قدم به كتاب الرد على النحاة ، لم تلبث أن
رت ونمت فى كتب الدكتور ضيف التى جاءت بعد ذلك،
بحوثه ومشروعاته التى تقدم بها - فيما بعد - إلى مجمع
العربية، فى محاولات مستمرة لإصلاح وتيسير النحو
بى. ويمثل كتاب «المدارس النحوية» الذى أصدره
تور شوقى ضيف فى عام ١٩٦٨ - الأساس النظرى
فته فى إصلاح الدرس اللغوى. فقد استطاع أن يحدد
ا من آرائه وأفكاره، وهو يحدد آراء أعلام المدارس
وية، ويناقش أفكارهم وتصوراتهم.

[1] ابن مضاء القرطبى: كتاب الرد على النحاة (نشر وتحقيق الدكتور
ضيف - الطبعة الأولى: دار الفكر العربى ١٩٤٧).

على أن هذا الكتاب فى حد ذاته يعتبر ريادة فى
المجال، فلم يسبقه كما يقول مؤلفه كتاب جامع ت
المدارس النحوية ورسم جهود أعلامها كما فعل فى
الكتاب، الذى تحدث عن المدارس النحوية من بص
وكوفية وبغدادية وأندلسية ومصرية.

ويحدثنا الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة هذا الكتاب
«بدأ بالمدرسة البصرية، لأنها هى التى وضعت أصول ن
وقواعده، ومكنت له من هذه الحياة المتصلة التى لا
يحياها إلى اليوم»[1]. وأعترف أننى ظللت أيامًا طوالا أق
فى كتاب الدكتور شوقى ضيف عن المدارس النحوية
متعة خصبة، وأتعرف على معالم هذه المدارس وأعلا

ولا أدرى هل أمضى فى استعراض هذين الكت
اللذين يمثلان ريادة الدكتور شوقى ضيف للدرس اللغو
أو أن ذلك يشق على القراء، حيث أننا مضطرون إلى
نتناول مباحث دقيقة التخصص فى النحو والصرف
على أية حال سأستعرض بعض الجوانب العامة

(١) الدكتور شوقى ضيف: المدارس النحوية. (الطبعة الثالثة - المعارف ١٩٧٦).

ين الكتابين: أما الكتاب الأول فهو «كتاب الرد على
حاة» لابن مضاء القرطبى، الذى صدر فى عام ١٩٤٧
حقيق الدكتور شوقى ضيف.

وقد قلت إن الدكتور ضيف قد مهد للكتاب بمدخل
هز حجم كتاب ابن مضاء، وهذا المدخل وحده يكاد
ون كتابًا مستقلا للدكتور شوقى ضيف، يوضح رأيه فى
رس اللغوى، وبصفة خاصة طبيعة التأليف فى النحو
ربى، وما يجب أن يكون عليه.

ويبدو أن الشاب شوقى ضيف فى مطلع حياته العلمية،
ت له آراء جريئة فى إعادة تصنيف النحو العربى فى
لع الأربعينات من هذا القرن، رأى أن يرود بها مجال
إسات اللغوية، ولكنه بسبب ما أحجم عن مواجهة
احة الثقافية بهذه الآراء الجريئة، حتى عثر على مخطوطة
ب الرد على النحاة، فحققها وقدم لها، واتخذ من كتاب
مضاء وسيلة لبث أفكاره هو.

يتجلى ذلك فى تعريفه بالكتاب وإبرازه جوانب معينة
ملق عليها بالموافقة والتأييد. وربطه بين ثورة علماء
ب على المشرق وعلومه فى مجال الفقه، وبين ثورة ابن مضاء

على النحو المشرقى، إن صح هذا التعبير، وربطه بين هذ
الثورة وبين المذهب الظاهرى، وعلل ثورة ابن مض
بإعجابه بالمذهب الظاهرى «فذهب يحاول تطبيقه ع
النحو، وقد بدأ فرفض نظرية العامل التى جعلت النح
يكثرون من التقدير، وهو تقدير يؤدى إلى عدم التمس
بحرفية آى الذكر الحكيم، تلك الحرفية التى كان يعتد
أصحاب مذهب الظاهر، وأيضًا فإنه اقترض من
ما يذهبون إليه من نفى العلل والقياس فى الفقه، ونادى
بتعميم ذلك فى النحو، حتى نتخلص من كل ما يعو
جريانه وانطلاقه فى العقول والأفهام»[1].

وابن مضاء - لكى نعرف أفكاره - يدعو إلى إل
نظرية العامل، ويعترض على تقدير العوامل المحذوفة، وه
النظرية من أصول النحو العربى الراسخة، أجمع عل
معظم النحويين على امتداد العصور، فالجهر بهذا الر
يعتبر ثورة فى عالم الدراسات اللغوية. ولقد كان ابن مض
جاعًا، وهو يقرر مجموعة من الأسس يراها صالحة ل
النحو، ويعترض على بعض هذه الأصول الراسخة قديمًا

(١) كتاب الرد على النحاة ص ٩.

جانب اعتراضه على نظرية العامل - إلى إلغاء العلل
وانى والثوالث، كما دعا إلى إلغاء القياس. ودعا إلى إلغاء
ما لا يفيدنا فى النطق.

ولقدكان الدكتور شوقى ضيف شجاعًا أيضًا، عندما
نضن هذه الأفكار وأبرزها. وأحيانًا كان يعلق عليها
تحسنًا مؤيدًا.

فعندما يقول ابن مضاء رأيه فى إلغاء نظرية العامل فى
نح الفصل الأول من كتابه، يؤيده الدكتور شوقى ضيف.
سن أن ننقل بعض النصوص التى تدعم هذا القول:

يقول ابن مضاء «قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من
و ما يستغنى النحوى عنه، وأنبه على ما أجمعوا على
أ فيه، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا
ن إلا بعامل لفظى، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظى
مل معنوى، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم فى قولنا
بَ زيدٌ عَمْرًا) أن الرفع الذى فى زيد والنصب الذى فى
و، إنما أحدثه ضَرَبَ... وذلك بين الفساد، وقد صرح
ف ذلك أبو الفتح بن جنى وغيره، قال أبو الفتح فى
ئصه - بعد كلام فى العوامل اللفظية والمعنوية - وأما

فى الحقيقة ومحصول الحديث، فالعمل من الرفع والنص
والجر والجزم، إنما هو للمتكلم نفسه لا بشىء غيره»[1]

ويعلق الدكتور شوقى على هذا النص بقوله: «وتح
هذه الفقرة فى طياتها غاية ابن مضاء من كتابه، فهو ير
أن يحذف من النحو كل ما لا نفتقر إليه، وقد بدأ بنظ
العامل، فرأى أنه يحسن أن ننقضها نقضا. وما العامل،
هذا الذى يدعيه النحاة، فى مثل (ضرب زيدٌ عَمْرًا)
يزعمون أن ضرب عملِ الرفع فى زيد، والنصب
عَمْرًا؟... وأن النحاة لَيُبالغون فى ذلك حتى نراهم يذهب
إلى أن علامات الإعراب آثار حقيقية للعوامل،
هم - على ما هو معروف - يطيلون بعد ذلك فى بيان شر
هذه العوامل، وبيان أنواعها، ومتى تحذف؟ و
تذكر - ومتى يتقدم المعمول على عامله؟ ومتى يتقدم
صاحبه؟ وأى العوامل يعتبر أصليًّا؟ وأيها يعتبر فرع
وأنهم يتورطون أثناء ذلك فى مشاكل كثيرة لا طائل ت
ولا مبرر لها»[2].

ونحن نلاحظ أن الدكتور ضيف متعاطف بصورة ك

(١) المصدر السابق ص ١٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٨ - ١٩.

بن مضاء، مؤيد لكتابه على كثرة ما فيه من ثغرات، ما فيه من بعض الجموح.

لقد ظل هذا التعاطف طوال الصفحات الكثيرة، يزداد د حتى تحول الدكتور ضيف إلى مهاجمة النحويين بابن مضاء. ففى صفحة ٤١ من المدخل نراه يقول: ق أن الإنسان لا يقرأ الصحف الأولى من شرح افى على كتاب سيبويه حتى يشك فى قيمة كل ما وضعه ا من علل وأقيسة فى نحوهم، فليس هناك حرف على الفعل، ولا حركة إلا ويعلل ذلك، وقد يدخله ل»[1].

، صفحة أخرى يقول: «وما من ريب أن من يقرأ كتابًا فى النحو، كشرح السيرافى على كتاب سيبويه، أو أبى حيان على التسهيل، يحس أن النحاة أفسدوا بكثرة ما وضعوا فيه من فروع وعلل وأصول وافية، ، غير علمية»[2].

، نهاية هذا المدخل نحس أن الدكتور ضيف لم يكن

المصدر السابق ص ٤١.

المصدر السابق ص ٤٥.

مجرد محقق نص فى النحو، وإنما كان صاحب فكرة يرـ
يعـرضها، فحـاول أن يشرحهـا فى ضوء كتـاب عالم ن
كابن مضاء، وليس هذا استنتاجًا، بل قال بصريـح الـ
«والإنسان لا يلم بهذه الآراء لابن مضاء، ويطيل النـ
كتب النحو المطولة وغير المطولة، حتى يحس الحاج
تصنيف النحو تصنيفًا جديدًا»[1].

وبعد هذا الكلام يقدم مشروعًا متكاملاً فى تـ
النحو، معتمدًا على نظرات ابن مضاء فى إلغاء
العامل، وإلغاء ما لا فائدة منه.

وقد ظل هذا المشروع ينمو فى نفس الدكتور
ضيف أعوامًا طوالاً حتى نَقَّحَهُ وأنضجه وأكمله،
لمجمع اللغة العربية.

أما الكتاب الثانى وهو (المدارس النحوية)
صدرت طبعته الأولى فى عام ١٩٧٦، فقد كان حصاد
دراسية قام بها فى عام ١٩٦٥، حينما دعته الجامعة الـ
ليحاضر قسم اللغة العربية بها فى تاريخ المدارس النـ

وكانت أفكار الدكتور شوقى ضيف - فى مجال

(١) المصدر السابق.

ى - قد اكتملت وزادت نضجًا، فتناول فى هذا
ب الكبير «المدارس النحوية» ولم يكتف بالتأريخ لها،
يف بأعلامها. بل ناقش أفكار هذه المدارس فى مجال
، بينها وفندها، وصحح كثيرًا من الأفكار السائدة
هؤلاء الرجال.

عود على بدء

وهنا لابد لنا من وقفة متأملة نقطع بها سياق
الحديث، الذى خصصناه منذ شهور لدراسة أعمال را
أكبر رواد الدراسة الأدبية، وهو الأستاذ الدكتور
ضيف، لنتناول عملاً جديدًا من أعماله الرائدة، ص
يونية ١٩٨٠. والعمل الجديد هو المجلد الخامس من
«تاريخ الأدب العربى». هذا التاريخ الباهر الذى توق
إنجازه منذ أعوام طوال، فى صبر الزهاد، وتأمل ا
ومنهج الباحثين الأدباء واستقصاء المفكرين.

والكتاب مجلد ضخم بلغ عدد صفحاته ٦٨٠ ،
بعنوان «عصر الدول والإمارات». ويتناول تاريخ
العربى فى الجزيرة العربية والعراق وإيران، فى فترة
عام ٣٣٤ للهجرة حتى العصر الحديث.

أى أن الدكتور شوقى ضيف أنهى الحديث عن
العباسى عند هذا التاريخ ٣٣٤ هـ. وكان معظم
الأدب العربى يمتد بالعصر العباسى، عند التأريخ للأ

ام ٦٥٦ هـ، وهو التاريخ الذى استولى فيه التتار على
عاصمة الخلافة فى أيام بنى العباس، فقوضوا حضارتهم
ة، وعاثوا فسادًا فى مدينة المسلمين، أى أنهم كانوا
ن ثلاثة قرون فى العصر العباسى، يسمونها بأسماء
، فهى من هذا التاريخ حتى استيلاء بنى عثمان على
ة، بعد أن أخضعوا لحكمهم مصر والشام والعراق،
ر المغولى» وهى تسمى أثناء الحكم العثمانى «العصر
ى».

لدكتور ضيف يرى أن هذا التصور مخطئ «لأن
ن الخلافة العباسية تتقلص ظلاله منذ سنة ٣٣٤ هـ،
لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه فى كثير من
سوى بغداد، فقد كانت إيران بيد بنى بويه، ونفس
أظله سلطانهم، وكانت البحرين واليمامة بيد
طة، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين. ومصر
بيد الإخشيد، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين،
لس بيد عبد الرحمن الناصر»[١١].

الدكتور شوقى ضيف: تاريخ الأدب العربى جـ ٥ عصر الدول
ت ص ٥ (دار المعارف ١٩٨٠).

ولهذا رأى الدكتور ضيف أن يدمج العصر المغو
عصر الدول والإمارات، وأن يدمج فيه العصر الـ

والجديد فى الأمر ليس فى مجرد التسميات، و
ألفاظ مختلفة على العصور، فهذا عمل شكلى يتصل
البحث أكثر مما يتصل بجوهر الدرس الأدبى، وإنما
حقًا أن الدكتور شوقى ضيف، توفر على هذه الفترة
الممتدة من عام (٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م) حتى مشارف
الحديث نحو (١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م) فى مطلع
التاسع عشر، وهى مساحة زمنية تناهز تسعمائة عام،
بفعل الدكتور شوقى إلى لوحة مشرقة واضحة الـ
بارزة القسمات.

وقد كانت هذه الفترة غير واضحة المعالم فى مجال
الأدبى، ولم تأخذ نصيبها من الدرس والتمحيص مث
فترات التاريخ الأدبى وعصوره. وبصدور هذا
الخامس أصبحنا نملك تاريخًا للأدب العربى متصل ا
على أرفع مستوى علمى، وبطريقة موضوعية تج
التاريخ والتقويم الفنى والجمالى والاستيعاب
للظواهر الفنية وتحديد معالمها، وتبين تطورها،
اتجاهاتها.

لجديد فى هذا المجلد أنه يتناول أدب الجزيرة العربية
اق وإيران فى تلك الفترة الزمنية، وهى فترة غامضة
لة للدارسين فى هذه الأقاليم قد نستثنى العراق، لأنه
بقليل من الدرس الأدبى عبر تلك الأيام.

نوى الدكتور شوقى ضيف أن يفرد المجلد السادس
خ لمصر والشام، فى هذه الفترة، والمجلد السابع
س والمغرب، كما يحدثنا فى مقدمة المجلد الخامس،
، تكون هذه الفترة قد حظيت بثلاثة مجلدات علمية،
ت بها من الظلام إلى النور، ومن الخفاء إلى الوضوح.

ى أن لهذه الفترة طبيعة تاريخية خاصة، ففيها ازداد
الفرق الإسلامية والطوائف، وازداد تلاطم الاتجاهات
ية، وازدهرت الفلسفة وعلوم الأوائل، ونضجت
هات الصوفية، وكثر شعر الوجدان وشعر الزهد،
أيضًا شعر اللهو والمجون.

ثرت المناظرات والمحاورات، وتناول النثر صنوفًا من
نة والحكمة والوعظ. وظهرت به القصص والرسائل
صية والديوانية.

، الجزيرة العربية وإيران والعراق، ظهر لون من

الشعر العقائدى، أشاعَهُ هؤلاء الذين كانوا ينتمو
الشعراء إلى الدعوات الإسماعيلية والزيدية وال
والكيسانية والوهابية والخوارج الإباضية.

وفى هذا العصر تمكنت بعض الفرق المتطرفة وا
على التيار العام فى الإسلام من إنشاء بعض الدول ه
سيطر القرامطة على البحرين، وسيطر الزيديون على
بعض الفترات، وسيطر الشيعة الإماميون على
وجعلوا التعاليم الإمامية، المذهب الرسمى لإيرا

ولعل احتدام هذه المذاهب والتيارات، وصراع
واستيلائها على بعض الأقاليم الإسلامية، هو الذى
لهذه الفترة مذاقًا خاصًا يختلف عن بقية الفترات،
أن استقلال بعض هذه الطوائف والفرق المذهبية
الأقاليم قد صبغ فكر هذه الفترة وأدبها وثقافتها
أفكار هذه الفرق، وأشاع تعاليمها ودقائق مذاهبها
هذا هو السبب فيما أصاب تلك الفترة من نسيان وإ
من المؤرخين والدارسين، فلاشك أن التيار الإسلامى
بمذاهبه واتجاهاته، كان ضد هذه الأفكار والاتجاهات،
ضاعت أصول هذه الفرق الفكرية ومصادر أدبها و

وهذا أشعر بالمجهود الضخم الذى بذله الدكتور شوقى يف ليستنقذ أدب هذه الفترة الطويلة المجهولة، من اثن النسيان، ويقدمها للدارسين فى هذا الثوب المشرق، ذا التناول العلمى الخصب.

وهذا المجلد الخامس يقدم صورة للمجتمع السياسى فى ليم ودول الحجاز ونجد واليمن، وحضر موت وظفار، مان، والبحرين.

ويتحدث عن حركة التشيع فى بعض تلك الأجزاء، نى ضوءًا على الخوارج الإباضية، والدعوة الوهابية لفية، ويرصد الظواهر التى كانت تنمو فى هذين لمارين السياسى والاجتماعى، ففى حديثه عن الثقافة ل الحركة العلمية، وعلوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية. وم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وعلوم الفقه والحديث فسير والقراءات وعلم الكلام.

كما درس الشعر وتتبع تطوره، وأرخ لأعلامه، وبخاصة اء الدعوة الإسلامية وشعراء الدعوة الزيدية، وشعراء ارج.

كما تحدث عن شعر الزهد والتصوف والمدائح النبوية،

وتحدث عن النثر وما حدث فيه من تنوع الكتابة والر
الديوانيـة والشخصية، والمـواعظ والخطب الـد
والمحاورات، والرسائل الفكاهية، والمقامات.

وبهذا المنهج نفسه، وعلى هذا النسق تحدث عن الأد
العراق وإيران، ولا نستطيع أن نلخص الكتاب كله
هذا النحو، فى هذه الصفحات، فهذا عمل يخرج عن
الإمكان.

ويكفى أن نقرر أن الدكتور شوقى ضيف احتشد
الدراسة احتشادًا كبيرًا، وشحذ لها كل ملكاته الفن
والأدبية المدربة المصقولة، فجاءت هذه الدراسة إلى
المترامية الأطراف، المتعددة الصفحات، وقد جمعت بين
وخصوبته ونضارته وبين العلم ودقته وفحصه وصرامته.
من أجل هذا تلهم القلب وتحرك العقل، وتثير ط
الإبداع فى القراء، وهذه سمة الدراسات الجيدة التى
وتؤثر.

والشيء الذى يجب أن نعترف به بعد صدور هذا ا
الضخم، أن الدكتور ضيف قد أدى واجبًا تقاعس عن
معظم النقاد والدارسين فى العصر الحديث، هذه وا

أخرى أن الدكتور ضيف لايزال يحتفظ بشبابه العقلى، قدرته على البحث والاستيعاب، والعرض الجذاب، لتحليل والفحص والتعليل، والوصول إلى كثير من قائق العلمية، والتصدى لدحض كثير من الأفكار والآراء ير العلمية التى تسللت إلى دراساتنا عن طريق هؤلاء ذين لا يفهمون من معنى النقد والدراسة الأدبية غير مع والحشد، وتسويد آلاف الصفحات دون فهم أو رفة !!

ولهذا أحسست وأنا أقرأ هذا المجلد الجديد بالمتعة قلية والغبطة الفكرية والجذل الروحى، وهى أحاسيس عر بها حيال الكتب التى تغيرنى وتصقل ذوقى وتشحذ لى وتخصب وجدانى.

على أن أكبر ميزة لهذا الكتاب الجديد أنه قدم لنا كثيرًا الشعراء والكتاب والمفكرين، فى إطار بيئتهم الزمانية كانية، وفى سياق المرحلة الحضارية التى كانوا يعيشون فى لها، فوضحت إنجازاتهم، وتحددت قيمتهم، وتجلى دورهم ثر الكبير. كما أعطانا المفاتيح التى نستطيع بها أن نلج الم هؤلاء، وكانت مغرقة فى الإبهام، موغلة فى الغموض.

كما ألقى الأضواء على عقائد هؤلاء الشعراء والأد
والكتاب.

ونستطيع أن نذكر من أسماء هؤلاء الشعراء والكت
عمارة اليمنى، والحضرمى، والصنعانى، وعبد الرحيم البرع
وعبدالرحمن العيدروس، من الجزيرة العربية. وصفى الد
الحِلِّى، والشريف الرضى، ومهيار، وابن الشبل البغداد
وابن الهبارية، والأحنف العكبرى، من العراق. و
ابن عبدالعزيز الجرجانى، وأبو بكر الخوارزمى، والأبيورد
والباخرزى، والقشيرى، ويحيى السهروردى، وأبو الـ
البستى، ورشيد الدين الوطواط، وابن العميد، وب
الزمان، من إيران.

هؤلاء وغيرهم يمثلون الكتاب والشعراء فى أقاليم
بعضهم كان مشهورًا والبعض الآخر كان لايزال فى مح
النسيان، تحولوا بعد صدور هذا الكتاب إلى أعلام معرو
لنا تمامًا، من خلال أفكارهم وإبداعهم الفنى والأ
وإنجازاتهم الفكرية والحضارية، وسيظلون كذلك إلى ما
الله، مادام هذا الكتاب يطبع ويتردد بين الناس.

شوقى ضيف والدرس اللغوى

عود إلى الحديث عن شوقى ضيف والدرس اللغوى، ن قطعناه فى العدد الماضى لنتوقف لحظات أمام كتابه ، وهو المجلد الخامس من الموسوعة الرائدة «تاريخ ، العربى».

رجو أن أشير فى بداية هذا الحديث، إلى أننى تقصى جوانب التفكير النقدى عند أستاذنا الدكتور ضيف، ولا أحيط بكل جهوده فى مجال الدراسات . فهذا يحتاج إلى مجلدين كبيرين يتفرغ لهما باحث عميق النظرة، مرتب الفكر، وأتمنى أن يقيض الله لهذا تلميذًا من تلاميذه البررة النجباء. وأنا أرشح لهذا صديقى الدكتور عبد الحكيم راضى.

عملى فى هذه الفصول المتتابعة، فهو مجرد إثارة موضوعات وتفجير بعض قضايا البحث، وتناول العناصر التى تمثل ريادة حقيقية للدكتور ضيف.

لهذا عدت مرة أخرى لاستكمال قضية الدرس اللـ
عند هذا العالم الرائد.

فهذا البحث يظل ناقصًا ما لم نشر إلى اهتمام الد
ضيف بإعادة بحث نحونا العربى، فى محاولة لتيسيره و
جزءًا أساسيًا من نسيج حياتنا التعليمية والثقافية

وقد تبينا من الفصول السابقة، اهتمام الدكتور ش
المبكر بقضية إصلاح النحو العربى، عندما حقق كتاب
مضاء فى الرد على النحاة، وقدم له بتمهيد طويل يكاد
كتابًا فى هذا الموضوع، وكان ذلك فى أواخر الأربعينا
هذا القرن.

هذه الأفكار ظلت تختمر وتنمو، ومع الممارسة العم
التدريس الجامعى والتأليف المستمر فى جوانب
بالأدب والنقد واللغة، تحولت عند الدكتور ضيف
ما يشبه المنهج العلمى فى إصلاح النحو، ولقد قاد
المنهج إلى تقديم مشروع لمجمع اللغة العربية يدور
إعادة النظر فى نحونا العربى، وكتب بحثًا بعنوان
النحو، ألقى ملخصه فى الجلسة السادسة من مؤتمر
المنعقد فى (١٩٧٧/٢/٢٨) ونشر البحث كاملا

ير النحو» فى مجلة المجمع، وأتيح لى أن أقرأ (فصلة) هذا البحث الدقيق العميق.

هذا البحث يشتمل على تشخيص للمشكلة، أو تحديد ية، مع حديث تفصيلى عن نشأة النحو، والجهود الجادة بذلت للتأليف فيه، ودراسة تاريخية عن المحاولات التى ها الرواد فى القديم والحديث، حول هذا الموضوع.

م ناقش التجارب التى وضعت لإصلاح النحو روعات المتعددة التى خصصت لهذا الإصلاح.

م خرج فى النهاية بمشروع متكامل لتيسير النحو، التزم ثلاثة أسس هامة، رآها صالحة لتحديد طبيعة هذا وع.

أساس الأول: إعادة تنسيق أبواب النحو، بحيث يب أذهان الناشئة بالتشتت.

لأساس الثانى: إلغاء الإعراب التقديرى والمحلى.

لأساس الثالث: ألا نعرب الكلمة مادام إعرابها د شيئًا فى صحة النطق.

حدثنا الدكتور ضيف فى مشروعه «أن هذه الأسس ؛ إذا أحسن استخدامها أمكن بها أن نيسر النحو،

دون أن يحدث أى تحوير أو تغيير فى مصطلحاته المو
مصطلحات المبتدأ والخبر، والفاعل ونائبه، والمفا
والحال، والتمييز، والتوابع، والمضاف. وأضيف الآن إلى
الأسس، أساسًا رابعًا، هو ضوابط سديدة أو
للأبواب، تتلاءم ورسمها رسمًا متميزًا، بحيث تتبين ال
أوضاعها ووظائفها فى التعبير تبينًا تامًّا»[1].

ومن خلال هذه الأسس الأربعة وعلى ضوئها
الدكتور شوقى ضيف أبواب النحو العربى وتفصيلات
ورثناها فى كتبه الراسخة المستقرة فى تراثنا العربى،
كيف ننسق أبواب النحو وندخل بعض التفصيلا
بعض الكليات، أو نمزج بين بعض الأبواب والموضو
كما بين كيف نستغنى عن الإعراب التقديرى وا
وكيف نستغنى عن إعراب الكلمة مادام الإعراب لا ي
صحة النطق.

وكنت أتمنى أن أفصل القول فى هذا المشروع لو
أرى أنه بحث شديد التخصص دقيق النظر.

ومع ذلك فلابد أن نتوقف عند بعض الأشياء التى

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٢٩٧ - (نقلا عن فصلة خاصة من

ح مشروع تيسير النحو، ففى مجال تنسيق أبواب
و، يرى الدكتور ضيف أن ننقل درس التوابع من باب
ل لتدرس فى أحكام الاسم المفرد وتقسيماته، ويعلل
تور ضيف ذلك بقوله: «لتتبين الناشئة أن المتبوع
كوِّن مع توابعه جملاً مفيدة، وبذلك ينمحى نهائيًّا من
مها الخلط بين النعت مثلاً والخبر، أو بينه وبين
ك»[1].

يرى أننا يجب أن نحذف ستة أبواب تتصل بباب
أ والخبر وتتفرع عنه، وهى أبواب «كان وأخواتها،
وأخواتها، وما ولا ولات العاملة عمل ليس، وباب إن
اتها، وباب لا النافية للجنس، وباب ظن وأخواتها، مما
ب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، وباب اعلم وأخواتها،
ا إن وأخواتها ، لسبب واضح، هو أن المبتدأ بعدها
ب ويسمى اسمها»[2].

هكذا يمضى الدكتور ضيف على هذا النحو فى مناقشة
، النحو وكيف يحذف بعضها ويضم البعض الآخر إلى
، تلائمه، مستعينًا بثقافته الواسعة فى النحو والصرف،

) المصدر السابق والصفحة. (٢) المصدر السابق ص ٢٩٨.

معتمدًا على بعض آراء النحاة التى تدعم فكرته فى ح
بعض الأبواب، وضم بعض الأبواب إلى أبواب أخرى.

وبذلك تشعر أنك أمام نحوىّ متمرس، يضيف
أضافوا، ويخترع كما اخترعوا، وعندما يقترح حذف
عشر بابًا من أبواب النحو، تشعر أنك أمام مفكر
يريد أن يخفف عن الناشئة ويرفع عنهم المشاق، وع
يضع تعريفًا لباب من أبواب النحو تحس دقة التع
ووضوحه، فتأمل تعريفه للمفعول المطلق: «كل
منصوب يصف الفعل أو يتعلق به ضربًا من التعلق،
كان مصدرًا أو غير مصدر».

ولاشك أن هذا التعريف يختلف عن تعريف ابن
الذى يقول: «اسم يؤكد عامله أو يبين نوعه أو ع
وليس خبرًا ولا حالاً»[1].

ويلخص لنا الدكتور ضيف فلسفة تيسيره للنحو
قدمه لمجمع اللغة العربية بقوله: «إن هذا التيسير الم
للنحو العربى يعفى الناشئة من شطر كبير من أبوا

(١) المصدر السابق ص ٣٠٤.

، فى أبوابه الأساسية، كما يعفيهم من التقدير فى إعراب
دات والجمل، وفى متعلق الظرف والجار والمجرور، وفى
، المضارع بعد إن المصدرية المحذوفة، ومن تصور أن
ات الإعراب الفرعية نائبة عن علامات أصلية،
يهم من الإعراب المعقد لبعض أدوات الشرط، ومن
ب هذه الأدوات جملة، إعراب كم الاستفهامية
رية، ولاسيما، وأن المخففة من الثقيلة.

فى الوقت نفسه يضبط لهم ضبطًا دقيقًا أبواب النحو
ة بالصعاب، كأبواب المفعول المطلق، والمفعول معه،
ال، وأصبحت صيغ الاستثناء والتمييز محددة أوفى
.... وحذف من الصرف الإعلال، وخفف الإبدال
صغير والنسب، وعنى بأربعة أبواب هى: جداول الفعل
الضمائر، وأعمال المصادر، والمشتقات، وحروف الجر
دة، والحذف والتقديم، حتى تستقر صياغات هذه
اب فى نفوس الناشئة»[1].

يقترح الدكتور شوقى ضيف إلى جانب هذه
يرات أن نعنى «فى دروس المطالعة للناشئة ببيان مخارج

---

[1] المصدر السابق ص ٣٠٧.

الحروف، حتى ينطقوا كلمات العربية نطقًا سليمًا، وك
العناية بتعريفهم بمواضع أَلِفَاتِ الوصل، وألفات ال
وبالوقف، أو قطع النطق عند أواخر الكلمات»[1].

ثم قدم الدكتور ضيف فى نهاية مشروعه منهجًا لك
النحو الميسر الذى يقترحه، ثم قال «وواضح أن
الصورة المقترحة للنحو ليست ثورة على قواعده المأ
التى وضعها له عباقرته الأفذاذ، وإنما هى محاولة
لتيسيره حتى يصبح أداة تعليمية بسيطة للناشئة، ب
تستطيع أن تتمثل قواعده، وتسيغها دون إرهاق أو
شاق»[2].

* * *

ونحن نلاحظ أن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف
يراعى المشقة التى يكابدها التلاميذ فى تحصيل ا
والصرف، وكانت هذه ضرورة أثرت فى صياغة
المشروع الذى قدمه لمجمع اللغة العربية لتيسير ال
وفكرة مراعاة مستوى التلاميذ وتيسير مصطلحات ال

(١) المصدر السابق والصفحة.
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٩.

عمل مشروع وواجب، ولكن يمكن أن يقوم به إخواننا
مدرسى اللغة العربية وموجهى التعليم فى وزارة التعليم،
ن الدكتور ضيف كان قادرًا على التجديد فى مجال دراسة
و والصرف باعتباره عالمًا لغويًا ونحويًا، له فلسفة
ية فى التجديد.

على أن فكرة تيسير النحو فى حد ذاتها فكرة خَطِرة، فما
الدكتور ضيف يسيرًا، يراه غيره معقدًا وشاقًا، وهكذا
نترخص فى التيسير حتى نُفْسِدَ العلوم بهذا المعيار
ض.

وأنا لا أناقش مشروع الدكتور شوقى ضيف للتيسير،
ن هذا هو المجال الصالح لتلك المناقشة التفصيلية
يقة التخصص.

على أننى مفتون بكتب النحو القديمة، وبخاصة المطولات
وأعتقد أنها فى حاجة إلى دراسة جمالية، ففى الكثير من
بلاتها وتفريعاتها المنطقية والنظرية ما يصلح لأن يكون
ًا فلسفيًا لعلم جمال عربى.

شوقى ضيف والدراسات الإسلامية

هناك جانب هام من جوانب شخصية الدكتور ش
ضيف العلمية، وهو جانب الدراسات الإسلامية، ولابد
التوقف عنده بعض الشيء ونحن نتناول إنجازه العل

وارتباط الدكتور ضيف بالدراسات الإسلامية، ار
حميم، فهو ارتباط نشأة، وارتباط ثقافة، وارتباط د
متواصل.

فقد نشأ فى بيت علم ودين، وتصوف، وبدأت حي
العلمية – قبل أن يدرس فى الجامعة، فى الأزهر ودار الع

ثم ظل ارتباطه عميقًا بتلك الدراسات، حتى وهو يد
للتلاميذ فى الجامعة الأدب وتاريخه، فقد تحدث فى كثير
كتبه الأدبية والتاريخية عن مظاهر كثيرة من المد
الإسلامية كان لها تأثير عميق على الدراسات الأدبية
تناول أشعار المتصوفة فى كل العصور، وكان يهتم بالجو
الإسلامية فى شعر الشعراء.

على أن الإنجاز الحقيقى الذى قدمه للدرا

لامية يتمثل فى المنهج الذى أصَّله ودرس من خلاله
أ من الظواهر والقضايا الفكرية، ولقد أتيح له أن
ف بضع سنين على القرآن العظيم والحديث النبوى
ة وتذوقا ودرسًا واستخلاصًا للعبرة والأفكار، وقد محَّص
ه مع تلاميذه فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة
مرة، حيث ظل يدرس لهم من خلال هذا المنهج اتجاهات
سير ومناهجه المختلفة.

ثم أتيح له بعد ذلك فى مرحلة من مراحل حياته العلمية
ينشر فى جريدة الأهرام مجموعة من الدراسات دارت
ل تفسير بعض السور القصار، ثم قام بتفسير سورة
مّن، ثم ضم كل هذه الحصيلة فى كتاب باسم «سورة
مّن وسور قصار» أصدرته دار المعارف فى مجلد كبير فى
١٩٧١.

فى هذا الكتاب يتجلى منهج الدكتور ضيف، الذى
ت إليه، والذى تكون له عبر حياته العلمية الموصولة
ة المباركة، وهو منهج علمى يعتمد على الفحص
قيق، والاستقراء والاستنباط، والموازنة والترجيح.
لاشك فى أنه قد استفاد من مناهج البحث الحديثة، كما

استفاد من مناهج البحث عند أسلافنا، وخاصة هؤلاء ا
عكفوا على تدوين الحديث، والسيرة النبوية، والت
الإسلامى. فقد تلمح فى هذا المنهج عناصر من بعض
المناهج، وقد تصادفك فى هذا المنهج بعض نظرات
مصطلح الحديث، وبخاصة ذلك الاتجاه فى تمحيص ال
وتوثيقه، ودراسة الرجال والرواة، واختبار صدقهم
ضوء منهج «الجَرح والتعديل»، وهذه تأثيرات مشر
ولكن يظل منهج الدكتور شوقى ضيف منهجًا جديدًا خ
به، كذلك المنهج الذى درس على ضوئه الأدب ال
واستخدمه فى النقد الأدبى، وهذا المنهج الجديد طبقه الد
ضيف فى كتابه «سورة الرحمن وسور قصار»، وهذا الك
يتناول تفسير سورة الرحمن، وسورة المُلك، وس
التكوير، وسورة الأعلى، وسورة الشمس، وسورة الع
وسورة الماعون، وسورة الإخلاص، وسورة الفَلق. وقد
بمقدمة ثم بعرض ودراسة لفاتحة الكتاب.

ويمكن أن نعتبر هذا الكتاب نقدًا أدبيًّا ، وتذوقًا -
لمجموعة من النصوص البلاغية التى وصلت إلى الذر
الإفصاح والبيان.

يمكن أن نعتبره رسالة فى الأخلاق، تعتمد على الأصل
ل من أصول الإسلام، وهو «الكتاب الكريم».
يمكن أن نعتبره تفسيرًا حديثًا، ففيه كل خصائص
سير الحديث. وقد تناول كما يقول الدكتور ضيف فى
ته «أصول العقيدة الإسلامية وبعض مبادئ الإسلام
ية والاجتماعية».
يمكن أن نعتبره كل هذه الأشياء جميعًا، فهو تذوق
ى لنص أدبى يدور حول أصول العقيدة الإسلامية، التى
ت فى الحضارة الإنسانية قيم الأخلاق والسمو الإنسانى،
العدل الاجتماعى.

لى أن هذا المنهج الذى استخدمه الدكتور ضيف فى هذا
ب حماه من الوقوع فى مزالق كثيرة تعرض لها، ووقع
معظم الذين تعرضوا لتفسير القرآن العظيم.
ما أكثر المدارس التى نشأت فى ظلال الحضارة
لامية، وكان لها منهج فى تفسير القرآن، وما أكثر
فات التى وقعت بين هذه المدارس بحسب اتجاهها إلى
دة أو الشريعة، أو من خلال موقعها الفكرى
حى.

فالشيعة لهم تفسيرات متعددة تعتمد على الت
والرموز الصوفية كذلك.

والفرق الإسلامية وفلاسفة الإسلام ومفكروه، ح
أن يخضعوا القرآن لنظراتهم الفكرية، واتجاهاتهم المذ
ونزعاتهم الصوفية. وقد تجنب الدكتور ضيف بخ
الأدبية، ونزعته العلمية، ومنهجه الجديد - كل هذه العي
لأنه اتجه أساسًا إلى النص القرآنى يلتمس من خلاله
العقيدة الإسلامية وتجلية قيمها الأخلاقية والاجتما

وحدثنا الدكتور ضيف فى مقدمة هذا الكتاب، أنه
هذه الأصول وتلك القيم من خلال آيات الذكر الح
ويقول: «كنت أتخذ من الآية نورًا يهدينى إلى مضمونها
فى القرآن، وأحاول بقدر ما أستطيع عرضه ووصفه،
اتصل ذلك بعظمة الله وجلاله، ورحمته وآلائه فى ا
والآخرة، أو بالرسالة والرسل، أو بالملائكة و
والشياطين، أو بماهية الحياة بعد الموت، والثواب والعقا
الآخرة، أو بالتهذيب الروحى والخلقى، أو بالعلا
العمرانية، أو بتحرير الإنسان من الهوى والخرافات،
الآثام، أو بدفعه إلى استغلال عقله، وكشف قوانين ا

راره، أو بإيقاظ وجدانه ومشاعره والسمو به إلى الكمال
سانى المأمول»[1].

وهذه فقرات تحدد بوضوح وقصد، الميادين التى دار
نا البحث فى هذا الكتاب، والقضايا التى تناولها من
ن تفسير هذه السور القرآنية. وهى طريقة متفردة
ها على أية حال تذكرنا بنظرات ابن تيمية وابن القيم
القدماء، كما تذكرنا بطريقة الإمام محمد عبده، والدكتور
. عبدالله دراز، والأستاذ أحمد حسين.

لكنها تختلف عن هؤلاء جميعًا، بهذا الوضوح البيانى،
الاعتدال المنهجى، وهذا التأصيل النظرى للسنن
نية والقيم الاجتماعية والأخلاقية التى دعا إليها القرآن
يم.

يرجع الفضل فى كل هذا لطبيعة المنهج العلمى الجديد
، اختطه الدكتور ضيف لدراساته الإسلامية، كذلك
نه العلمية المواتية التى تدفعه إلى التقصى والبحث،
كوف الطويل على مصادره ونصوصه التى يتناولها،

) الدكتور شوقى ضيف: سورة الرحمن وسور قصار ص ١١ (دار
ـ ١٩٧١).

وتذوق ما فيها من جمال، والنفوذ إلى ما فى باطنها، وما
من أسرار ومعارف، وهضمها، ثم الوصول بعد ذلك
الحقائق العلمية، وعرضها بطريقة تجمع بين الموض
والجاذبية الفنية.

ولعل الذى مكن الدكتور ضيف من الوصول إلى ك
وصل إليه - إلى جانب علمه - تواضعه، فهذه ا
الأخلاقية حمته من الغرور والصلف اللذين يفسدان
العلماء واجتهاداتهم، ولعل تلك السمة الأخلاقية الرفيعة
التى تدفعه إلى الاعتراف بفضل العلماء الذين سبقو
الميدان الذى يكتب فيه، ويتناوله بالدرس والتحليل،
نهاية المقدمة التى كتبها لهذا الكتاب العلمى الممتاز
يقول: «وأعترف بأنى رجعت إلى كثير من كتب التف
كتفسير الطبرى، والنيسابورى، والزمخشرى، وا
الرازى، والقرطبى، وابن كثير، وابن تيمية، وابن
الجوزية، والبيضاوى، وأبى حيان، والألوسى، وإسم
حقى، والشيخ محمد عبده.

وكل ما نهضت به فى هذه الصحف لا يعدو غَرْفَةً ص
بيدىَّ القاصرتين من ينبوع القرآن العظيم، الذى

حيقه الصافى العقول، ويشفى النفوس»[1].

وهناك كتاب آخر ليس من تأليف الدكتور شوقى ضيف كن من تحقيقه. وهو كتاب «السبعة فى القراءات» لابن اهد، وهو كتاب يتصل بالدراسات القرآنية أيضًا، عكف كتور ضيف على تحقيقه فى حب وتبتل، وكتب له مقدمة يلة حول موضوعه والتعريف بصاحبه.

وقد حدثنى الدكتور شوقى ضيف أن هذا الكتاب، أحب به إليه، وأنه بذل فيه كل هذه الجهود تقربًا إلى الله... ثم ل لى فى صوت خاشع:

... أرجو أن يقبلنى الله فى رحابه لقاء ما بذلت فى هذا كتاب!

* * *

وبعـــــد...

فأعتقد أننى بهذه الفصول الطوال التى أدرتها حول كتور شوقى ضيف وإنجازاته العلمية، والتى استغرقت

(١) المصدر السابق والصفحة.

عامًا كاملاً من أعوام الثقافة[1]، قد أديت بعض الواجب نح
هذا الرائد العظيم، وألقيت الأضواء على أهم اتجاه
الأدبية والفكرية، ومنهجه فى الدرس الأدبى والنقد
والدراسات الإسلامية. وإن كنت أظن أن الأمر لايز
محتاجًا إلى فصل آخر يكون بمثابة الخاتمة، يذكر بأ
العناصر التى تناولتها فى هذه الفصول، ويقف عند جوا
أخرى متفرقة من حياة الدكتور ضيف العلمية، كاتجاهه
التأصيل النظرى فى النقد الأدبى، وكذلك منزعه فى الن
التطبيقى، وتناوله لبعض أجناس أدبية أخرى كدراسته ل
المقامة وغيرها من الفنون الأدبية.

(١) مجلة الثقافة القاهرية التى نشرت فيها هذه الفصول والتى كنت ر
لتحريرها طوال عشرة أعوام.

خاتمـــة

وأحاول الآن أن أكتب الفصل الختامى لهذه الدراسات
ى صحبت فيها أستاذنا الدكتور شوقى ضيف أكثر من
م، وحاولت فى خلالها أن أبرهن بالأدلة التفصيلية على
دة الدكتور شوقى لأكثر من مجال.

قلت فى المقالة الأولى إنه:

* رائد فى النقد والدراسة الأدبية والدراسات اللغوية.
* رائد فى تأصيل مناهج جديدة للبحث العلمى.
* رائد فى الدراسات القرآنية والإسلامية.

وأعتقد أن هذه المقالات والفصول الطوال، قد أجابت
دلة التفصيلية والتأصيل النظرى، على هذه القضايا
لاث.

وأشهد أننى بذلت ما وسعنى من الجهد واستفرغت كل
قتى فى هذه الفصول، وأتمنى أن تلهم الشباب، وتحفز
ميذ الدكتور شوقى ضيف على استكمال البحث والدرس
ل هذا الرائد العظيم الذى قدم للمكتبة العربية كل هذه

الكتب الرائدة الممتازة، والذى قاد بحق اتجاهات التجد
فى نقدنا العربى الحديث منذ الثلث الثانى من القر
العشرين حتى الآن.

وكان لابد أن أركز فى دراستى لإنجازات هذا الرا
العلمية الكثيرة حول أهم الملامح الجديدة التى تشكل عا
العلمى والفكرى.

* ولهذا وقفت طويلا عند إنجاز شوقى ضيف وتار
الأدب العربى.

* وتريثت عند تأصيله لمذاهب جديدة للأدب العربى

* وأشرت إلى إنجازه فى مجال الدراسات اللغو
والإسلامية.

واستغرقتنى هذه الجوانب بصورة كبيرة، فلم ألتفت إ
جوانب هامة أخرى، أشعر الآن، أنها كانت فى حاجة إ
درس مفصل.

ولعل من هذه الجوانب دراساته فى الأدب العر
الحديث، وله فى هذا المجال أكثر من كتاب، من أهمها خم
كتب هى:

١ - دراسات فى الشعر العربى المعاصر.

- الأدب العربى المعاصر فى مصر.
- فصول فى الشعر ونقده.
- البارودى رائد الشعر الحديث.
- شوقى شاعر العصر الحديث.

هناك جانب آخر هو دراسة بعض فنون الأدب العربى
ة ميسورة ومبسطة، وقد درس من هذه الفنون:

- الرثاء.
- المقامة.
- النقد.
- الترجمة الشخصية.
- الرحلات.

هناك أيضًا جانب ثالث من جوانب إبداع الدكتور
، ضيف العلمى، هو جانب التأصيل النظرى.

ن أهم كتبه فى هذا الجانب:

- النقد الأدبى.
- البلاغة تطور وتاريخ.
- البحث الأدبى: طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره.

هذه الجوانب الثلاثة تحتاج إلى دراسات مفصلة

مستوعبة حتى تكتمل الصورة لإنجاز صديقنا وأس
الدكتور شوقى ضيف.

– وأعتقد أننى أديت واجبى نحو هذا الرائد العظيم،
ألتمس لنفسى العذر إذا ما اكتفيت بهذا القدر من الب
والتنقيب فى عالم الدكتور ضيف، يبقى أن أتوقف قليلاً
كتاب من هذه الكتب، أعتبره أهم كتب الدكتور ش
النظرية، وهو كتاب «البحث الأدبى: طبيعته. منا
أصوله. مصادره» وقد صدر هذا الكتاب فى فبراير ٧٢

وقد ظلمه الدكتور ضيف فى مقدمته عندما قرر أنه
منذ زمن بعيد «بأن طلبة الدراسات العليا فى أقسام
العربية بجامعاتنا المختلفة، فى حاجة ملحة إلى كتاب يبي
كيف يوضع البحث الأدبى، وكيف يختار، وكيف يُ
منهجيًّا، وكيف تحقق أصوله وتوثق، وكيف تستخدم مص
وينتفع بها على خير وجه». فظنه بعض الذين يكتفون
قراءة الكتب بمقدماتها كتابًا مدرسيًّا لطلاب الدرا
العليا، يرشدهم فى كتابة بحوثهم.

ومع أن هذا الكتاب يؤدى هذه المهمة خير أداء،
أهم بحث نظرى قرأته فى علم المناهج، قديمها وحد

يمتاز عن كل الكتب الهامة التى تناولت هذا الموضوع،
يه من دقة البحث، وسهولة العرض، وجاذبية التناول،
سوبة الإشارات التطبيقية، وروعة المزج بين القديم
ديث.

م هو بعد ذلك لا يكتفى بعرض المناهج، ولكنه يقدم
خلال هذا العرض منهجًا جديدًا متكاملا، ولعل ذلك
إلى أن الدكتور ضيف قد كتب هذا الكتاب بعد ممارسة
ة للتأليف والدرس الأدبى واللغوى والإسلامى، تكونت
خلالها - حصيلة ثقافية كبيرة، وخبرة علمية عميقة.
ف متنوعة تحولت إلى عصارات ثقافية ترسبت فى عقله
انه، ولذلك جاء هذا الكتاب لونًا جديدًا من ألوان
ة الذاتية، يتحدث عن العملية الثقافية من خلال
ات الدكتور ضيف، ولكن دون أن يشير إلى ذلك.
الكتاب يتناول أربعة عناصر هامة:

لعنصر الأول: طبيعة البحث الأدبى: وقد ركز فى هذا
ر على مادة البحث الأدبى - اختيار البحث الأدبى -
ى مواد البحث الأدبى - الاستقراء والاستنباط - دقة
ير - التذوق والتحليل - العرض والأداء.

والعنصر الثانى: عن «المناهج».

وقد تناول القديم والحديث، وتأثير العلوم الطبيعية
مناهج البحث الأدبى وتناول الدراسات الاجت
والبحوث النفسية. والفلسفة الجمالية. والدراسات ال
والموضوعية.

ودعا فى النهاية إلى المنهج التكاملى. . .

والعنصر الثالث: عن «الأصول».

وهذا العنصر من أهم عناصر الكتب، ففيه تتجلى
المؤلف الثقافية والعلمية، وجمعه بين الثقافتين: ال
والحديثة، ويكاد يكون منهجًا علميًّا دقيقًا نعرف من
طريقة التحقيق العلمى، ونتدرب على هذا الفن الذى
ينقرض رواده، وقد تحدث الدكتور ضيف فى هذا الع
عن التوثيق والتحقيق، وتوثيق رواية الحديث وأص
وتوثيق رواية الشعر ودواوينه، وتوثيق المصنفات ال
والأدبية. ونسخ الأصول وتحقيقها، كما تحدث
الصعوبات التى تصادف المحقق عندما يمحى جزء من
المخطوطة أو من اسم المؤلف، أو يسقط منها أوراق،
ذلك من الصعوبات. وشرح طريقة التغلب على

وبات، وقدم خبراته فى التحقيق.

فى العنصر الرابع: تحدث عن «المصادر».

هذا بحث يحتاج إليه كل مؤلف، ولهذا قدم الدكتور
كل ما يحتاج إليه الباحثون من:

١ - تنوع المصادر.
٢ - استخدام القدماء للمصادر.
٣ - نقد القدماء للمصادر.
٤ - استخدام المحدثين للمصادر.
٥ - نقد المحدثين للمصادر.
٦ - الملحوظات والاقتباسات.
٧ - الهوامش والحواشى.

بعد فهذا الكتاب معلم ومدرب لطريقة البحث العلمى
بة الأدبية، يشحذ العقل، ويلهم القلب، وينير البصيرة
الباحث على الصبر والدأب وطريقة الاستفادة من
جع، كما يوقظ فى الإنسان الشوق إلى التزود بالجديد
المعارف ويعلمه فى النهاية كيف يحقق نصًا قديمًا.

* * *

لست أدرى كيف أختم بحثى عن الدكتور ش
ضيف؟

فلا أظن أننى فى حاجة إلى خاتمة تقليدية، ويكفى
يعود الباحثون إلى مؤلفات الدكتور ضيف ليقفوا مبهو
أمام هذا الهرم الأكبر فى البحث الأدبى والإبداع الث
على أننى فى النهاية أنصح الإخوة من الأدباء والبا
الذين لم تمكنهم ظروف الحياة من التخرج فى الجامعات
يقتنوا كتب الدكتور ضيف كلها، ويبدءوا بهذا الكتاب
تحدثت عنه، ثم يعكفوا على قراءة هذه الكتب، وع
ينتهون منها سيكونون قد تخرجوا فى جامعة الدكتور ض

ولاشك أن هذه الكتب بطبعاتها المتعددة أدت و
وستظل تؤدى هذا الدور العلمى الرائد الجليل..

فهـرس

صفحة

الكتاب ٥

مة ٧

ضيف وتاريخ الأدب العربى (١) ٢٧

ضيف وتاريخ الأدب العربى (٢) ٣٩

ضيف وتاريخ الأدب العربى (٣) ٥٧

ة العصر العباسى ٦٩

ضيف ومذاهب الأدب العربى (١) ٨٢

ضيف ومذاهب الأدب العربى (٢) ٩٢

ت جديدة فى الدرس الأدبى ١٠٠

ضيف والدرس اللغوى ١١٠

على بـدء ١٢٠

ضيف والدرس اللغوى ١٢٩

ضيف والدراسات الإسلامية ١٣٨

ة ١٤٧

اقرأ فى هذه المجموعة

ت أبى العلاء	د . طه حسين
لام شهر زاد	د . طه حسين
بيتى	عباس محمود العقاد
يخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
دى والمهدية	أحمد أمين
عملكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
نة المطاف	على الجارم
نواس	د . عبد الحليم عباس
، وطين	يحيى حقى
ناق الثلاثة	د . زكى مبارك
كلوجية الجنس	د . يوسف مراد
سيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
ب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
ن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
إلى	طه عبد الباقى سرور

شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر الما
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض

رقم الإيداع	١٩٨٨ / ٧٦٨١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٥٧٢-X

١ / ٨٨ / ٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٥٩٠٢/٠١

قرش جنيه
١٩٥٠٠